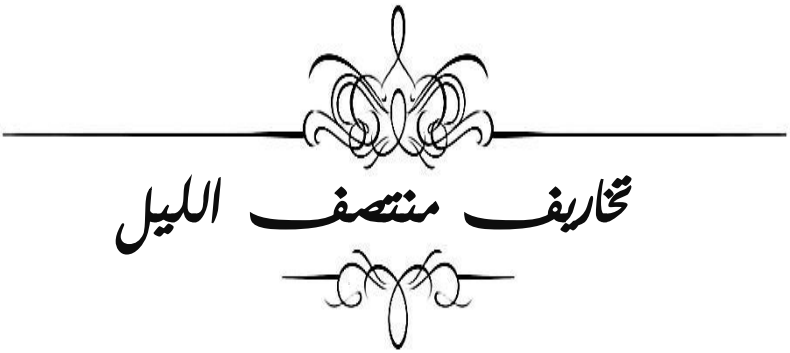

تخاريف منتصف الليل

الكاتبة: هبة عادل السويسي
تخاريف منتصف الليل: مجموعة قصصية
تصميم الغلاف: عمرو أنور
تدقيق: بنت الزيات
إخراج فنيّ: الباشا عبدالباسط
رقم الإيداع: 25355 / 2017
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 844 - 009 - 6

دار بنت الزيات للنشر والتوزيع :Facebook Page
E_mail: bentelzayat1@gmail.com
Website: www.bentelzayat.tk

رئيس مجلس الإدارة / د. شاهندة الزيات

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©
لدار بنت الزيات
المشهرة قانونًا بسجلّ تجاريّ رقم / 49351

تخاريف منتصف الليل

مجموعة قصصية

هبة عادل السويسي

إهداء

إلي من حاربوا شمعة الحياة بداخلي فأطفؤوا نورها سنوات عدة

ثم جاء من أخذ بيدي وغرس بذور الثقة ليضيء شموع الإبداع

وحب الحياة

إليه وحده..

أجراسُ الرَّحيلِ

أزحْتُ عنِّي الغطاء لأصطدم ببرودة الغرفة، شعرْتُ أنِّي نمْتُ ألف عامٍ أو يزيد، مشيتُ بخطواتٍ متثاقلةٍ نحو الصَّالة أسترقُ السَّمع لصوت الطَّرقات المُتتالية على زجاج النافذة.

ابتسمتُ، وبدأ قلبي يرقص طرباً لصوته، إنَّها المرَّة الأولى في هذا العام.

تقدَّمتُ وفتحتُ النَّافذة لاستقبال رائحة المطر وهي تسري في دمي، كأنَّها قارورة عطرٍ انسكبَتْ عن عمدٍ؛ ليفوحَ شذاها في الكون كلِّه، ورغم تلك النَّشوة التي أثارَتْني للحظاتٍ معدودةٍ، مازلتُ أغرق في اللَّونين: الأبيض والأسود، وما زالَتِ المأساة تؤلمني وتعاودني الذِّكرى .

استيقظتُ في الثَّانية بعد منتصف اللَّيل على صوت رنينٍ مُتتالٍ لهاتف المنزل، التقطتُ السَّمَّاعة وأنا أعلم مَنْ يهاتفني على الطَّرف الآخر، بضع كلماتٍ تضع النِّهاية في وسط الشَّاشة وتُسدل السِّتار، أرتدي ملابسي وأخرج مُسرعةً لا أَجِد المِصْعَد ولا أستطيع الانتظار، أنزل بخطواتٍ منتظمةٍ على الدَّرج، ولكنِّي لا أستطيع أن ألتقطَ أنفاسي.

ومع مرور الطَّوابق تختفي الألوان من على الجدران، وقفتُ في الشَّارع أمام العمارة أنتظر " تاكسي" يُقِلُّني إلى المستشفى، وكلَّما مررتُ بشارعٍ وجدتُ واجهات المحلَّات قد تحوَّلَتْ للأبيض والأسود، كلُّ الكون صار بنفس اللَّونين.

دلفتُ من باب المستشفى، والصَّمت المُطبق يسود العالم، وأنا أمضي نحو ممرَّاتٍ بلا نهايةٍ أشعر أنَّ أحدهم يرافقني، أتلفَّتُ حولي ولا أَجد أحداً، الظَّلام يحوطني برغم الإضاءة السَّاطعة في الممرَّات، وصلتُ إلى باب غرفتها، وقفتُ ووضعتُ يدي على مقبض الباب دون أن أُديره وأغمضتُ عينيَّ،

اتسعَتْ حدقتا عينيَّ وأنا أراها تقف بالقرب من النَّافذة ، تتمايل وتبتسم وتقول: المطر يسعد قلبي.

نظرتُ إليها وأبديتُ إعجابي بفستانها القصير وحذائها ذي الكعب العالي، تبدو لي كأوَّل يومٍ التقيتُ بها بهيَّةً مُتألِّقةً منعزلةً عن صخَب الحياة وضجيجها مثل روحٍ هائمةٍ.

أدرتُ المِقبض لأجد إضاءة الغرفة خافتةً لا أكاد أراها، تقدَّمتُ منها، تلمسَّتُ يدها التي تغلب عليها الزُّرْقة وكذلك وجهها، بحثتُ عن الحياة

فيها، قبَّلتُ جبينها، نظرَتْ لي وأغمضَتْ عينيها، شعرتُ به يشاركني لحظات وداعي الأخيرة، الموت المتربِّص في الأركان.

الغرفة تلوَّنَتْ بلون الأكفان حتى ذهبَتْ عنها زُرْقتها، واكتَسَى وجهها ببسمة حبٍّ ورضا، انهمَرتْ دموعي، وعجزْتُ عن الكلام، خطوتُ خطواتٍ مضطَّربةً نحو الشُّرفة، وأرهفتُ السَّمع إلى صوته في حين رحل صوتها بسلامٍ.

* * *

قهوة تركي

كعادتها اليوميَّة كلَّ صباحٍ تجلس على المقعد الخشبيّ أمام البحيرة، تتأمَّل إبداع الخالق، يخفق قلبها بشدَّةٍ لسماع صوت الطُّيور تحلِّق بالقرب منها، تتمنَّى أن تشاركها التَّحليق والابتعاد في الأفق دون النَّظر للخلف أو البكاء على ما فات، عيناها الجميلتان الفاترتان بلونهما القاتم تنظر للعالم من خلف لوحٍ من الزُّجاج الشَّفَّاف، لا تُظهر أيَّ انفعالٍ بالسَّعادة أو الحزن، شغفُها بمتابعة الطَّريق لم يكن عاديَّاً وأوهامها لا تنقطع أبداً.

تجلس بلا حركةٍ حتى ظنَّ الجميع أنَّها تمثالٌ من شمعٍ على وشك الانصهار من حرارة شمس أغسطس، أو التجمُّد في برد ديسمبر، ولا تغادر المكان إلَّا عندما تتوسَّط الشَّمس السَّماء، تدير ظهرها للبحيرة وتخطو خطواتٍ مضطَّربةً، تصل إلى باب البيت فتتذكَّر أنَّها لم تُطعِم قطَّتها منذ أوَّل أمس، تبدأ في الهَمْهَمة تلعن ذاكرتها، وتلعن القطَّة، وتُسرع في وضع الماء والطَّعام لها، وتنظر إليها ببرودٍ وتعتذر، وقبل أن تتركها تُلقي لها بوعد عدم نسيانها مرَّةً أخرى.

تعبر الباب إلى غرفة الجلوس كأنَّها تعبر إلى أحد الكهوف المُظلمة التي ليس لها آخر، تدير مُؤشِّر المِذْياع ، تنطلق الموسيقى، تجلس بجانب النَّافذة وتنظر إلى حديقتها الصَّغيرة تأسَف للرَّيحانة التي ماتَتْ منذ فترةٍ عندما أصاب العطب مواسير النَّشادر في مصنع الثَّلج القريب لتنطلق في الجوّ وتحرق النَّباتات دون رحمةٍ .

تحوّل بصرها إلى شجرة الرُّمَّان وحيدة الفرع التي تذكّرها بعُقمها، فتلعنها وتنهار، تتلمَّس التَّجاعيد العميقة في وجهها، لم تخطَّ السُّنون تلك التَّجاعيد، ولكن خطَّتْها الوحدة والحزن والعيش دون ولدٍ، تنظر في المرآة يتعرَّق جبينها بشدَّةٍ.

تشفق على رَحِمها العقيم وعلى شجرة الرُّمَّان، حملَتْ ذنب عُقمِها على ظهرها ثقيلاً مثل جوالٍ من الأحجار، وبعد مرور تلك السَّنوات الطَّويلة ما زالَتِ الأحلام الجهنَّمية تراودها، أصبحَتْ واهيةً لا تتحمَّل حتى الأحلام .

التَّواريخ المشؤومة التي تذكّرها برحيله ليجوب العالم ويحصل على المرأة التي تهَبُه ولداً .

ترك البيت والحبَّ سعياً وراء الولد، ذهب ليحيا بسعادةٍ بجوار أخرى تضع الحياة بين يديه.

تقدَّمَتْ إلى طاولة الطَّعام وجلسَتْ، وأشعلَتْ عوداً من الكبريت، ووضعَتْ كنكة القهوة على الموقد الصَّغير، وظلَّتْ شاردةً، وعندما بدأَتْ في الغليان رفعَتْها، وصبَّتْ فنجانين، ووضعَتْ واحداً أمامَها والآخر باتِّجاهه منتظرةً عودته لاحتسائه.

*** * ***

غيبة حمام

رغم أنّي لم أشاهد أيّاً من قمم الجبال الشّاهقة يوماً إلّا أنّي أظنُّ أنَّه لا يُوجد أعلى من أسوار السِّجن، وأحمد الله أنَّه لا يحجب ضوء الشَّمس عنّي فهو الشَّيء الوحيد الذي يُعطيني أَمَلاً في حياةٍ جديدةٍ إلّا في ذلك اليوم عندما لمحتُ سرباً من الحمام يعبر السَّماء، عادَتِ الذِّكرى التي قسمَتْ روحي نصفين، تذكَّرتُ هديل سلطان، أجمل ذَكَر حمامٍ في غيتي، كان يغنّي لي وكأنَّه يعلم ما أصاب قلبي من الهَجر والخذلان، وبرغم ذلك لم تأسر قلبه إلّا دليلة، حمامةٌ في غية جاري أسماها على اسم زوجته .

أصابني الجنونُ كيف لسلطان هَجر غيته؟ ولمَ لم يختر أيَّ حمامةٍ غيرها؟، واستجمعتُ كل قوَّةٍ لديَّ وذهبتُ إلى بيت جاري، طرقتُ الباب فإذا به يفتحُ، سألتُه أن يردَّ لي ذَكَر الحمام؛ لأنه استوطن غيته، ولكنَّه فاجأني برفضه، بل زاد الأمر عندما بدأ يصرخ فيَّ ويقول:

إنَّ " سلطان " أدرك حقيقتي وملَّ البقاء برُفقتي، حاولتُ الابتعاد عنه ولكنَّه لاحَقني بكلماته، لم أشعرْ بنفسي وأنا ألتقط حجراً وباغتُّه

بضربةٍ على رأسه فوقع يلفظ أنفاسه الأخيرة، أنظر له وأصرخ كَمَداً عليه، اليوم أنا القابعة خلف أسوار السِّجن أمشي وأنا أجرُّ حِمْلاً ثقيلاً ، حُكم عليَّ بالمؤبَّد، ولكنَّ جُرمي الأكبر العشق.

لم أعِ أكنتُ أقتله لأستعيد " سلطان " أم لأستعيد قلبه الذي رفض عشقي ومضى في عشق أخرى؟ لم تستطع الأيام محو صورته من صدري، والآن هو حبيس القبر، وأنا حبيسة السِّجن، أمَّا " سلطان ودليلة " فينعمان بالحرِّيَّة والتَّحليق .

* * *

الشَّالُ الأحمرُ

تقدَّمتُ من خزانة ملابسي كي أختار شيئاً ثقيلاً؛ فالجوُّ شديد البرودة بالخارج، وقعَتْ عيني على شالٍ من القطيفة لونه أحمر، أذكر حين خرجتُ في ذلك اليوم للتَّسوُّق، ووقفتُ أمام فاترينة إحدى المحلَّات التِّجارية كانَتِ الواجهة مشرقةً بالألوان الزَّاهية، لفت انتباهي شالٌ من القطيفة فدلفتُ إلى داخل المحلِّ كي أراه عن كثبٍ، أُغْرمتُ بالشَّال، وكأنَّه ضالَّتي التي أبحث عنها، ولكن كعادتي دائماً لا تكتمل فرحتي، لقد نفد لوني المفضَّل الأسود اللَّون الذي فرضَتْه عليَّ نفسي دون مبرِّرٍ.

تعالَتْ ضحكتي وأنا أقف أمام البائعة، وهي تحاول إقناعي باللَّون الأحمر ولكنِّي صمتُّ فجأةً، عندما وضعتُه على كتفي وجدتُ أنَّ كلَّ شيءٍ من حولي اختفى ولا أعرف كيف أقنعتُ نفسي أنَّ الأحمر لا يختلف كثيراً عن الأسود .

على عَجَلةٍ دفعتُ ثمنه، وخلعتُ الجاكيت الذي أرتديه ووضعتُه في الحقيبة، وتزيَّنتُ بالشَّال الجديد، شعُرت بسعادةٍ غامرةٍ يختلج قلبي

لها، عبرتُ الشَّارع وإذا بي ألمح عن بعدٍ امرأةً شديدة الجمال في العشرين من عمرها تمشي وسط جموع البشر المتدفِّقة كالموج، نظرتُ لها نظرةً شاحبةً وهي تخطو خطواتِها المتمهِّلة ترفرف بخفَّةٍ، لا تكترثُ بالعيون التي تُحملق فيها.

ألوان الغَسق زادَتْ ملابسها جمالاً فأصبحَتْ كأنَّها قطعةٌ من ذلك الكون، شعرتُ بانحرافٍ في مزاجي؛ لأنِّي لم أتناولْ قهوتي طيلة اليوم، فدلفتُ إلى إحدى الكافيهات المنتشرة على جانبي الطَّريق، وجلستُ أمام طاولةٍ دائريَّةٍ، لكنني أُصبتُ بالدَّهشة لوجود تلك المرأة الجميلة تجلس وأمامها قدحٌ من القهوة وبعضٌ من الشكولاتة الدَّاكنة، شعرتُ بالغيرة منها، لا أعلم السَّبب، ترتشف القهوة بشفتين مزمومتين، لم أرفع عينيَّ عنها حتى أنهيتُ احتساء قهوتي وغادرتُ إلى منزلي بعد يومٍ حافلٍ بالتَّغيير.

عدتُ من شرودي، جذبتُ الشَّال، وضعتُه على كتفي، خرجْتُ من الباب أسير في الشَّارع بخطواتٍ متمهِّلةٍ عبر تعاريج روحي، صفٌّ من البيوت والمحلَّات القديمة على جانبي الطَّريق، لديَّ رغبةٌ أبديَّةٌ أثيمةٌ تدفعني للوقوف أمام واجهة المحلَّات بعينين تلمعان بتعبيرٍ غامضٍ، أنظر للمعروضات دون مبالاةٍ ، أعبر الشَّارع أنظر للشَّمس الغاربة .

وجوه النَّاس متجهِّمةٌ، ألمحها تمشي في الجهة المقابلة لي بنفس الفستان الأسود، وجهها محزونٌ، قاربَتْ من العقد السَّادس أو يزيد، وقد سقط شالها الأحمر، و لم تنتبه له، اختفَتْ مرَّةً واحدةً، وكأنَّها تبخَّرَتْ في الهواء.

أوقفْتُ سيَّارة أجرةٍ، وقبل أن يهمَّ السَّائق بالمغادرة إذا بشابٍّ يبتسمُ لي ويلوِّح بيده، أعطاني الشال، وقال: إنَّه سقط منِّي دون أن أشعر.

* * *

المُدلَّلة

أمام السُّلَّم المؤدِّي للدَّور الثَّاني وقفَتْ جدَّتي تنادي عليَّ أنا وإخوتي الخمسة.

سبقَتْنا أمِّي ونزلَتْ درجات السُّلَّم مسرعةً ونحن من خلفها، نظرَتْ لنا جدَّتي بتمعُّنٍ، قلوبنا واجفةٌ تنتظر كلمات جدَّتي، ولماذا هذا النِّداء المتواصل؟

لكن علامات الغضب كانَتْ باديةً على وجهها ممَّا يدلُّ على مصيبةٍ تلوح في الأفق، كسرَتْ أمِّي ذاك الصَّمت الذي أطبق على صدورنا، حينها قالَتْ أمِّي: خيرٌ يا حاجَّة، ما الخبر؟

أشارَتْ جدَّتي بيدها إلى القنديل المعلَّق على الجدار وقالَتْ: لثالث مرَّةٍ يُكسر ذلك القنديل، لقد غضضتُ الطَّرف عنه في المرَّتين السَّابقتين، ولكن هذه المرَّة لن تمرَّ على خيرٍ، على المذنب أن يقدِّم نفسه ويعترف بفِعْلته قبل أن تنتصف الشَّمس فى كبد السَّماء، وإلا فالكلُّ معاقَبٌ منِّي.

صار الهواء راكداً بفعل كلمتها، التفتَتْ أمِّي وقد جحظَتْ عيناها، وقبل

أن تنطق بكلمةٍ أشارَتْ لي جدَّتي بالنُّزول إليها، كنتُ الطِّفلة المدلَّلة رغم أنِّي لم أكن الكبيرة ولم أكن بالصَّغيرة، كنتُ الوُسطى بين البنات والبنين، شاركتُ جدَّتي بالنُّزول، كانَتْ تحمل معنى أنِّي بعيدةٌ كلَّ البعد عن ذلك الاتِّهام أو حتى العقاب، استندَتْ على كتفي الكليم المخطَّط، وبين يديَّ صينيَّة القهوة.

خرجْنا من باب البيت عدَّة خطواتٍ، وقفَتْ جدَّتي، وأخرجَتْ من جيب الجلابية مفتاح الحديقة، دسَّتْه بداخل القفل، فُتح الباب ودخلْنا، وضعَت " الكليم " على الأرض، جلسَتْ وجلسْتُ بجوارها، وأمامنا الصينيَّة، أشعلَتِ الموقد، ووضعَتِ الكنكة عليه، ونظرَتْ إليَّ وقالَتْ: مَن تظنِّين أنَّه فعلها؟، مططْتُ شفتيَّ دليلاً على عدم المعرفة، ظلَّتْ تُتمتم بكلماتٍ غير مفهومةٍ على الإطلاق ثمَّ قالَتْ: سوف نعرف بعد قليلٍ.

صبَّتِ القهوة وأخذَتْ ترتشفها على مهلٍ، كنتُ أنظر إليها بترقُّبٍ شديدٍ حتى اقتربتْ من إنهاء القدح، ابتسمَتْ وأعطَتْه لي، أمسكْتُ به وأنا أشعر بنشوةٍ جديدةٍ، ارتشفتُ الباقي فيه على مهلٍ مثلها.
كانَتْ جدَّتي منغلقةً على نفسها مثل صندوقٍ امتلأ عن آخره بالأسرار، لم نشعر بالحرارة ونحن نجلس في ظلِّ الأشجار؛ فشمس الخريف

حانيةٌ، ونسمات الهواء تمرُّ لطيفةً محمَّلةً برائحة الورد والرَّيحان الموجود بالحديقة، مرَّ وقتٌ طويلٌ دون حديثٍ، ولكنِّي كنتُ أعشق صمتها، فجأةً همَّتْ بالوقوف وقالَتْ: لقد حان الوقت، توجَّهنا إلى البيت لأجد أمِّي وإخوتي في انتظارنا، جلستْ جدَّتي على أريكتها المفضَّلة الموجودة في صدر البيت وإخوتي يقفون صفَّاً في عيونهم دموعٌ متمرِّدةٌ لا تريد أن تنهمر .

صاحَتْ جدَّتي بصوتٍ مرتفعٍ : مَنْ فعلَها ؟؟؟

ردَّ أخي الكبير : لم يعترفْ أحدٌ .

قالَتْ: إذن كلُّكم مُعاقَبون .

رأيتُهم واحداً تلو الآخر يُضرب على قدَمَيْه، وأنا أجلس بالقرب من أريكة جدَّتي لا أبالي، أشعر أنِّي مَدينةٌ بالاعتذار مرَّتين: مرَّةً لإخوتي الذين يتلقَّون العقاب مكاني، والمرَّة الثَّانية لجدَّتي؛ لأنِّي كسرتُ القنديل ثلاث مرَّاتٍ ومازلتُ أفكِّر في كسره مرَّاتٍ عديدةً.

هذا الاعتراف سوف يظلُّ بداخلي؛ فالأقوياء لا يُجيدون الاعتذار.

* * *

ذنوبُ عاشقَةٍ

جلستُ في مكتبي لا أفكِّر في شيءٍ محدَّدٍ على الإطلاق، ولكن لديَّ رغبةٌ حثيثةٌ أن أكتب لكَ، تغريني الأوراقُ البيضاءُ، وتدعوني أن أكتب عليها وتشتاقُ للأحبار أن تتلمَّس صفحاتها، تودُّ أن تحتضنها من فرط الشَّوق، أضعف أمام ذلك الشَّوق الجارف، أتذكَّر كلَّ ما عانيْتُه من الشَّوق، أريد أن تكون رسالتي الأخيرة مختلفةً كلَّ الاختلاف عن ألف رسالةٍ سابقةٍ.

أعلم تمام العلم أنَّ كلَّ شيءٍ انتهى، ولم تكن له بدايةٌ، وأنَّ ما صنعَتْه الأقدار كان كافياً كي أبتعد إلى الأبد، ولكنْ رسالةٌ واحدةٌ لن تغيِّر شيئاً سوى أنَّها تخفِّف عن قلبي ولو القليل من ألم الحبِّ.

تبدو حكاياتنا الآن كرجلٍ يقوم بتنظيم مجموعةٍ من اللآلئ في عقدٍ، كلُّ لؤلؤةٍ لها حكايةٌ لا يعرف سرَّها غيري، لا أريد أن أتلفَّظ ببعض العبارات المبتورة، بعد حينٍ تدرك ما كنتُ أعنيه، ربَّما تستغرق بعد الوقت حتى تستطيع تفسير الوضع الحالي.

انتظرتُكَ طويلاً، أصبح اللَّيل رائعاً وبارداً باعتدالٍ، كان الجوُّ مُهيَّئاً لذلك التَّفكير الخياليّ لتلك اللَّيالي الورديَّة التي دائماً أتمنَّى أن تحدث ولكن دون جدوى، وما الجدوى أن أتخيَّل أنّي معكَ وأنّي بجوارِكَ دائماً؟

أحلامي الجهنَّميَّة تصوّر لي تلك الأشياء، تتعاظم يوماً بعد آخر بداخلي، وجاء ارتباطكَ بأختي الصَّغيرة ليضع خطّاً فاصلاً للأبد، لم يكن خطأكَ أو خطأً صغيرتي، وكيف يمكن أن أحمّلكما أوزاراً ليسَتْ لكما؟، أنا التي أودعتُ البوح في بئرٍ عميقٍ حتى لا يستطيع الوصول إليكَ، فضَّلْتُ أن أحبَّكَ للحبِّ فقط؛ فكان حبّاً مبتوراً من طرفٍ واحدٍ، أمَّا هذا الخطاب فسوف يلقى مصير أشقَّائه يُدفن بجوار البَوح في تلك البئر حاملاً الأسرار والأشواق والدُّموع بعد فترةٍ، سوف أدركُ نوعاً من التَّناغم في هذا الجحيم من الضَّوضاء، سينقشع ذلك الضَّباب الذي يلفُّ الكون، تهدأ المناقشات الحامية بداخلي فكلُّ ما سبق لا منطقيٌّ، إحساسٌ بالرَّحابة والهدوء الشَّامل الذي يسود حياتي بعد رحلةٍ من الاشتياق.

* * *

تخاريف قبلَ مُنتصفِ اللَّيل

استيقظتُ لأجد نفسي ملقاةً بجوار سيَّارتي والأرض مغطَّاةٌ بالجليد، وحولي العديد من الجبال التي يكسوها الثَّلج، قِممٌ شاهقةٌ لم أرَها من قبل، اللَّون الأبيض يغزو الكون من حولي كأنَّه قطعةٌ من الحرير النَّاعم، لا أشعر بالبرد في أوصالي رغم أنَّ الجوَّ يثير التَّجمُّد في قلبي.

حاولتُ جاهدةً أن أُدير محرِّكَ سيَّارتي لكن دون جدوى، لا أَمَلَ في محاولةٍ أخرى ولا يُوجد بديلٌ، أشعر أنِّي بمكانٍ غير المكان، وزمانٍ غير زماني، لا أذكر أيَّ شيءٍ حدث قبل أن أستيقظ في تلك البُقعة الغريبة من العالم، ولا أعلم كيفيَّة الوصول إلى هنا، الضَّوء يغمر الدُّنيا ولكنْ لا شمس، لا أعرف التَّوقيت أو متى يحلُّ الغروب؟، كلُّ شيءٍ مجهولٌ، طالعْتُ ساعة يدي ولكنَّها متوقِّفةٌ وهي تشير إلى السَّابعة، أكاد أموت وأنا أحاول أن أعرف هل هي السَّابعة صباحاً أم مساءً؟

دعوتُ الله سرَّاً وجهراً أن تكون صباحاً؛ ليكون لديَّ متَّسعٌ من الوقت حتى أتدبَّر أمري، فلم يكن لي يوماً عدوٌّ بحجم الظَّلام، فإن حَلَّ وأنا ما زلتُ هنا، فأنا ميِّتةٌ لا محالة .

ترجَّلتُ من سيَّارتي ولا أستطيع التَّفكير في شيءٍ معيَّنٍ، حاولتُ النِّداء ولكنِّي عدلتُ عن الفكرة في اللَّحظة الأخيرة، على مَنْ أنادي؟، لا أعرف أحداً في ذلك المكان حتى أنّي لا أذكر اسمي، أنا في بقعةٍ غريبةٍ من الأرض كفراشةٍ نادرةٍ ضلَّتْ طريق العودة إلى حيث تنتمي، ارتسمَتْ على وجهي أَمَارات القلق، أسير وأتوقَّع شيئاً غريباً لا يمكن وصفه، يهُبُّ عليَّ كأنَّه أمواج بحرٍ هائجٍ .

أشعر أنَّ الأرض تميد بي، لايمكنُني التوقُّف وفي نفس الوقت واضحٌ أنَّ السَّير محاولةٌ غير مُجديةٍ، قلبي تجمَّد، وجميع شراييني تصلَّبَتْ، يغالبني البكاء ولكنِّي أتمسَّك بالعزيمة القويَّة.

لاحَتْ في الأفق شجرةٌ كبيرةٌ لم أرَ لها مثيلاً حتى لم أسمع عنها يوماً في كلِّ الأساطير التي كانَتْ تقصُّها عليَّ أمِّي قبل النَّوم، لا أعرف إن كانَتْ هذه بشارةً وسأَجِد طريق العودة أم أنَّ خلفها نذيراً؟

أسرعتُ وأصبح المشي عَدْوَاً حتى وصلتُ إليها، ولأوَّل مرَّةٍ أشعر كم أنا ضئيلةٌ إلى هذا الحدِّ أمام ارتفاعها!، فهي عملاقةٌ لا أوَّل لها ولا آخر، تصنع ظلَّاً عملاقاً مثلها، وخلفها منزلٌ لا يقلُّ حجماً عنها، أسود يغاير لون الكون، درجاته مغطَّاةٌ بالجليد، وبابه مفتوحٌ على مِصراعيه .

صعدْتُ السُّلَّم، المكان خالٍ، لا تُوجد أيُّ علامةٍ على الحياة فيه حتى ظهر ذلك الشَّيخ ذو اللِّحية السوداء، ورغم ما يظهر عليه من تقدُّمٍ بالعمر لكنَّه لا يمتلك أيَّ شعرةٍ بيضاء في رأسه ولحيته.

ألقيتُ عليه السَّلام وردَّه إليَّ ثمَّ وجَّهَ إليَّ الحديث مُستغرباً: ما الذي أتى بي إلى تلك الأرض؟

قصصْتُ عليه ما حدث.....

زَفَر بقوَّةٍ وقال: مَن يصل إلى هنا فعليه أن يجد طريق العودة وإلَّا سوف تكون هذه أرض بقائه إلى أن ينتهي العمر .

تحدَّثْتُ إليه في حدَّةٍ : ولكنّي لم آتِ إلى هنا، إنَّ ما حدث خطأٌ فادحٌ.

نظر إليَّ نظرةً ثاقبةً حتى شعرتُ أنَّ أوصالي تنتفض وقال: ومَن يختار طريقه؟ .. عليكِ أن تعبري البيت حتى تصلي إلى الباب في الطَّرف الآخر وتخرجي بسلامٍ، ولا أنصحكِ بالتَّخاذل، فعندما ستحلُّ ساعة دخول اللَّيل الأسود ستتمنَّيْن الموت، قاتلي بضراوةٍ حتى تصلي، لا تُظهري رحمةً أو شفقةً.

اصطحبَني إلى ممرٍّ مُضاءٍ بالقناديل، كان صوته رخيماً، ولكنَّه بدأ يتبدَّد في الفضاء ومضى بريقٌ في عقلي ماذا سأقابل؟؟

تقدَّمتُ بضع خطواتٍ حتى نهاية الممرِّ،وجدتُها تقف تضع إكليلاً من الشَّوك، تحسَّسْتُ وجهي كأنها أنا تبتسم، وفتحت جِوالاً كبيراً ليخرج منه طوفانٌ من النَّمل الأبيض يغزوها من أخمص قدميها حتى رأسها فتضحك بجنونٍ لا تشعر بلدغات النَّمل المُميتة، ولكنِّي كنتُ أشعر بها، أخذتُ أصرخ مثلها.

أدركتُ أنَّ النِّهاية سوف تكون هنا وأنِّي لن أغادر إلى أيِّ مكان، رفعتُ قنديلاً من على الجدار وقذفتُها به فأضرمتُ النَّار فيها تأكل النَّمل من الحرارة لكنَّها لم تحترق، تحوَّل إكليل الشَّوك إلى طوقٍ من الياسمين ، تنحَّتْ جانباً واتَّسعَتْ ابتسامتها، تقدَّمْتُ من الباب وقبل أن أدير مقبضَه استيقظتُ على صوت ساعة الحائط العتيقة التي ورثتُها عن أمِّي تدقُّ بعنفٍ معلنةً منتصف اللَّيل وقلبي يبادلها الدَّقَّ بعنفٍ.

تلفَّتُّ حولي لأجد نفسي على سريري وبغرفتي، تنفَّسْتُ بعمقٍ وتذكَّرتُ أنَّها عادتي اليوميَّة ..... إنَّها تخاريف قبل منتصف اللَّيل.

* * *

كعب كوباية

لقد تجاوز الشَّيخ محمَّد ساعةً ونصفاً وهو يقرأ القرآن، وكلَّما انتهى من قراءةِ رُبْعٍ أشاروا إليه كي يكمل؛ فالوفود المُعزّية تتزايد مع الوقت حتى بدأ يتملَّكني شعورٌ قويٌّ بأنَّ أبي كان ضمن التَّشكيل الأخير للحكومة، ولكنَّ الحقيقةَ أنَّه لم يزدْ عن كونه محامياً مخضرماً يقصده القاصي والدَّاني، أو كما كانَتْ تقول أمّي عنه بأنَّ (طوب الأرض) يعرف أبي ويحترمه لِمَا كان له من مكانةٍ في المجتمع، رحل وترك لنا الكثير من الأشياء حتى لا يتسنَّى لأحدٍ أن ينساه، وكنتُ أنا أعظم دليلٍ على ذلك، فلم أتركْ صفةً وراثيَّةً واحدةً إلَّا وتشرَّبْتُها منه، وكأنَّ أمّي قامَتْ بإجراء عمليَّة استنساخٍ لا ولادةٍ طبيعيَّةٍ، ملامحه الجامدة، سُمرة وجهه، نظره الضَّعيف حدَّ الجنون أو كما يقولون (شيش بيش) أكثر من ثلاثين عاماً وأنا أرى الدُّنيا من خلف نظَّارة (كعب كوباية) لا أميِّز الأشخاص ولا الألوان ورغم تخرُّجي في كلِّيَّة الحقوق إلَّا أنِّي لم أعمل، قد كان يكفي أخي مساعدة والدي على الانتقال من مكانٍ لآخر، فوجودي لم يكن يزيد الهمَّ إلا همَّاً آخر.

كلُّ التُّكنولوجيا الحديثة والتَّطوُّر في طبِّ العيون لم يشفع لي وظلَّتِ النَّظَّارة أسواراً شاهقةً أختفي وراءها عن كلِّ العيون التي ترصدني، وكما رحلَتْ أمِّي منذ عامين رحل أبي اليوم لأجد نفسي أفكِّر في عناء وجودي وحدي في الحياة دون سندٍ، وأخي الوحيد أراه دائماً يبتعد عن تحمُّل مسؤوليَّتي .

وجدتُ مَن يأخذ بيدي، قلت: هل انصرف المعزُّون؟ لم أتلقَّ ردَّاً ولكنِّي ألمح ذلك الشَّبح الذي يقودني في صمتٍ، كان صمتي إعلان التَّسليم للأمر الواقع، صعدتُ لغرفتي وجلستُ في مكاني المُعتاد، أصبح البيت الكبير الذي كان يخلو من مظاهر الحياة مكتظَّاً بالنَّاس، أخي .. زوجته .. بعض الأهل الذين انقطعوا منذ سنواتٍ عن زيارتنا لم يعنِني مَن يكونون؟ أو ما الذي جاء بهم الآن؟ لقد أصبحتُ غريبةً في بيتي، لا أتحدَّث إلى أحدٍ، ولم يهتمَّ أحدٌ بالحديث معي، والآن أغرق في الوحدة حتَّى الثُّمالة، وصارت السَّاعات تمضي بل الأيَّام والأسابيع والشُّهور، كلُّ ما أفعله أنِّي أستمع إلى بعض الكتب والموسيقي الهادئة .

حتى أتى ذلك اليوم، سمعتُ أصواتاً من الخارج، انزعجتُ لشدَّتها، خرجتُ لأعرف ما الخبر؟ فجأةً أصبحتُ مثل قطارٍ خرج عن القضبان، اصطدمتُ بالأثاث وكلِّ ماجاء في طريقي، تعثَّرتُ وسقطتُ على الأرض،

وكأنَّ باب غرفتي فُتح على مكانٍ آخر لا أعرفه، ولم أعش فيه يوماً، وقفتُ وكلِّي حقدٌ على تلك الحياة التي فعلَتْ بي ما فعلَتْ، واصطدمتُ مرَّةً أخرى بشيءٍ أكثر صلابةً، كأنه جبلٌ من جليدٍ، إنَّها زوجة أخي تأمرني بالعودة من حيث أتيتُ، وكأنَّ البيت أصبح بيتها وأنا دخيلةٌ عليه، حاولتُ أن أفهم بعض العبارات الصَّارمة التي كانَتْ تنهرني بها ولكنَّها بدأَتْ تدفعني وتلومني على كسر بعض الأشياء الثَّمينة، وقفتُ في غرفتي أصرخ حزناً على نفسي، أنادي على أبي بقوَّةٍ، أين أنتَ؟ أنا ذرِّيَّتكَ الضَّعيفة، تعالَ كي ترى ضعفي.

استجمعتُ قواي ومشيتُ بهدوءٍ أتلمَّس الطَّريق حتى خرجتُ من باب البيت، إلى أين؟ وماهي وجهتي؟ وكيف أقدم على ذلكَ؟ .. إنِّي تعثَّرتُ في بيتٍ عشتُ فيه ثلاثة عقودٍ، ولكن شرودي وعجزي جعلني كمَنْ ضلَّت الطَّريق منذ ما يقارب مائة عامٍ، هانَتْ حياتي ولم تعد تعني لي سوى المزيد من الألم، أدركتُ أنِّي وسط الشَّارع، ومن أصوات السَّيَّارات علمتُ أنِّي هدفٌ يحاول الجميع عدم إصابته، لحظاتٌ ثمَّ سكونٌ وبحرٌ من الألَم يتدفَّق من جسدي، أشعر ببرودة الأسفلت الذي أرقد عليه تحسَّستُ وجهي لم تكن النظَّارة موجودةً، ولكنِّي أرى خيالاتٍ تحوَّلَتْ إلى كتلةٍ من الضَّوء تتَّسع حتى استوعبَتْني.

أخذتُ أقول لنفسي: الموت لا يأتي إلَّا باللَّون الأسود فما هذا الضوء؟، يبدو أنَّ للموت لوناً مختلفاً، ولكنَّ الأحياء يصرُّون على أنَّه أسود مخيفٌ، يا ليتني أستطيع أن أقول لهم لونه الحقيقي من تلك التي تقف بجانبي حتى وأنا ميّتةٌ لا أستطيع أن أرى بوضوحٍ، أشعر بها تبكي، لا أعرف أحداً يهمُّه أمري لدرجة البكاء عليَّ، أيُعقل أن تكون تلك روحي تبكيني؟ لقد تجاورَتْ هي وجسدي فترةً طويلةً، قد تكون أو لا تكون هي، لا يهمُّ.

أنا الآن خارج حدود الحياة لا يعنيني من أمر الدُّنيا شيءٌ ، صمتُّ لأسمع ذلك الصَّوت الذي يأتي من حينٍ لآخر، يهمس لي ثمَّ يمضي، أبتسم لنفسي فما أكثر أشباحي حيَّةً وميّتةً، زحمة الأصوات في رأسي تؤلمني، أميّزها بعيدةً، ولكنَّها تحدّثني، أحاول الكلام ولكنْ كلُّ شيءٍ ثقيلٌ، تعثَّرتِ الكلمات على لساني وانطلقْتُ .

سمعتُ أخي يهنّئني بسلامة العودة وانقضاء أوقاتٍ صعبةٍ، اختفَتِ الابتسامة بسرعةٍ عن وجهي، لقد تلاشى بصيص النُّور من عينيَّ، تحسَّسْتُ وجهي؛ لأجد ذلك الضِّماد يلتفُّ حول عينيَّ في الوقت الذي كنتُ أسارع فيه الموت وأتشبَّثُ بالحياة .

رحلَتْ هي ووُضعَتْ في ثلَّاجة الموتى وأوصَتْ بعيونها لمَن يحتاجها، وكنتُ أنا أوَّل عابر سبيلٍ يلتمس النُّور..

وجمتُ وأنا أسمع كلَّ ذلك، أعلم أنَّه حلمٌ جميلٌ سوف ينقلب بكابوس مزعجٍ عمَّا قريبٍ، لم يزح الطَّبيب الضِّماد، ولكنَّه أزاح سنواتٍ طويلةً من الضَّباب، وأصبح كلُّ شيءٍ يتألَّق بألوان الرَّبيع الزَّاهية، استبدلتُ عيونى السَّوداء بعيونٍ زرقاءَ كسماءٍ صافيةٍ أضافَتْ إلى وجهي الأسمر جمالاً غير عاديّ، واليوم أنظر لنفسي في المرآة، حقَّاً لا أرى صورةَ مَن وهبَتْني النُّور خلف عيوني ولا أراها تلوِّح لي أو حتى أكرِّر النَّظر في الأشياء مرَّةً لي ومرَّةً لها، لا يحدث كلُّ ذلك ولكنَّها كانَتْ سبباً في هدم الأسوار التي كنتُ أقبع خلفها، ليس كلُّ انهيارٍ يعني النِّهاية، انهارَتْ حياتي القديمة لأجد دنيا بأكملها تنتظر منِّي البدء من جديدٍ.

* * *

طبولُ الحبِّ

الموت في مدينة الأبيض لا يشبه الموت في جميع المدن الأخرى، ألا ترتدي النِّساء الملابس السوداء ويعلو النَّحيب والعويل حتَّى يصم الآذان؟ .

هل للموت هناك أوجهٌ أخرى لا نعلمها فلا يسيل من القتيل قطرة دماءٍ أو لعلَّها تتحوَّل لتكون بلون مدينته البيضاء؟ .

وهل ينعم القاتل بالحبِّ والأمان على فِعْلته النَّكراء وإن كان موته طبيعيَّاً؟، أيستقبل الشَّخص الموت وهو يعلن الأفراح؟.

عن أيِّ موتٍ تتكلَّمون في مدينته البيضاء؟

كلُّ هذا ما تبادر إلى ذهني وأنا أجلس بجوار ذلك الحكيم وسط صحراء لا أوَّل لها من آخر يتكلَّم ويثرثر كي ينسى وحشة ذلك السُّكون المُميت، مَن كانوا حولي يصغون على نحوٍ كاملٍ له، لا أظنُّهم يفكِّرون بل هو مجرَّد حديثٍ كي ينقضي معظم اللَّيل ويهمَّ برفع أستاره والرَّحيل وترك مجالٍ للنور حتى يعمَّ السَّلام والأمان وعندها ينصهر كلام ذلك الحكيم مع لهيب الشمس .

قد يترك ذكرى بداخل بعض العقول وقد يذهب كلُّه ولا يبقى منه أدنى أثرٍ، لكنَّه مختلفٌ بالنِّسبة لي، لقد فتح باب السُّؤال بداخلي، سؤالٌ يسعى لألف جوابٍ، ومع أوَّل خيوطٍ في ضوء النَّهار بدأ الجميع في جمع أشيائهم، وسرنا في خطٍّ طويلٍ، القائد على رأس القافلة ونحن تابعون له، كنت أنظر لمَن حولي في صمتٍ دون أن أقترب من أحدٍ، فأنا شابٌّ في مقتبل العمر ليس لي خبرةٌ بأمور التِّجارة والسَّفر عبر الصَّحراء، ولكن أبي له باعٌ طويلٌ فيها قام بالتَّجهيز للرِّحلة وقبل السَّفر بعدَّة أيَّامٍ رحل إلى جوار ربِّه، استقبلتُ أفواجاً من المعزِّين الذين حمَّلوني أمانة أخواتي، وذلك لأنِّي الابن الأكبر تحمَّلتُ المسؤوليَّة وها أنا وسط الصَّحراء.

احترم الجميع صمتي واعتبروه حزناً على فراق أبي، وأنا صمتُّ حتى أواري عجزي وضعفي، اهتممتُ لذلك الحكيم الذي كاد يتجاوز المائة من العمر، وقرَّرتُ أن أكون عوناً له في تلك الرِّحلة، أقدِّمُ له التَّمر والماء، وأحمل عنه بعض الأشياء.

وانتهزتُ أوَّل فرصةٍ كي أتعرَّف أكثر عن المدينة البيضاء، وهل هناكَ حقَّاً مدينةٌ بذلك الاسم أم أنَّها مجرَّد أسطورةٍ لا أكثر ولا أقلَّ؟، ابتسم الحكيم وقال: وما غايتكَ منها؟ .. قلتُ: لا أعلم، ولكن أيُّ مدينةٍ تلك

يكون فيها الموت مُباحاً؟ .. وكيف للموت هناك أن يكون مختلفاً؟ أيعقل أن يتقدَّم عاقلٌ للموت طواعيةً؟.

ردَّ: إنَّها بلدٌ ليس لها مثيلٌ، ولن تجد مدينةً غيرها في هذا العالم، الكلُّ هناك بالأمان ينعمون، إنَّها مدينة المودَّة والرَّحمة.

كان حديثه يخطفني أكثر، وفجأةً نظر لي بدهشةٍ، وقال: أتعرف أنَّها هنا؟ .. قلتُ: أينَ؟ .. ردَّ: في اتِّجاه الجنوب على مسيرة يومٍ فقط، ويكون السَّائل أمام أسوارها الشَّاهقة ثمَّ سكت عن الكلام وغطَّ في نومٍ عميقٍ.

أخذ الكلام يجوب في رأسي كيفما يشاء، أصبحتُ فجأةً أسير ذلك المجهول، أأكملُ رحلتي أم أتَّجهُ للجنوب خلف فضولي الذي ينتظرني هناك؟، لم يأخذ التَّفكير منِّي وقتاً طويلاً، كنتُ أشعر أنِّي لا أسير على الأرض، ولكنِّي أطير تسبقني أحلامي إلى أنْ وصلتُ إليها، أبوابها مفتوحةٌ، الكلُّ يدخلُ ولا يخرج منها أحدٌ، لا وجود للحرس، الكلُّ مشغولٌ بتلك المناقصة العالية، منجذبون لشيءٍ لا أعلمه، انعدمَتْ كلُّ الألوان من حولي، ولم يبقَ إلَّا الأبيض، لم يهتمَّ أحدٌ بوجودي ولم يسألوا عن سبب زيارتي.

اجتمع النَّاس يتحدَّثون حتَّى ظننْتُ أنَّهم لم يتعلَّموا الكلام ولكن يتبادلون النَّظرات والهمسات والإشارات، وفجأةً قطع ذلك الصَّمتَ صوتُ الطُّبول العالية التى يختلف قرعها عن أيِّ صوتٍ آخر، فلم أفهم أكان نداء فرحٍ أم حزنٍ؟ ... انقسم النَّاس صفَّيْن، لحظاتٌ وجمَتْ فيها الوجوه ثمَّ ذهب شابٌّ إلى المنصَّة، وبدأ الكلُّ في نثر الورد في طريقه إلى أن صعد وابتسم ونظر إلى السَّماء، وإذا بكتلةٍ كبيرةٍ من الضَّوء تقترب منه حتَّى أصبحْتُ لا أعلم أين هو منها؟ ثم ارتفعَتْ إلى السَّماء مرَّةً أخرى.

هتف الجميع وبدأوا في إعلان الفرح...

وقفتُ ذاهلاً لا أدري ما ذلك؟، ومن بين ألوف الوجوه كان هناكَ وجهٌ كالشَّمس، همس لي وقال: إنَّه الموت حبًّاً ... الموت عشقاً، سوف تمضي له دون تفكيرٍ أو إدراكٍ، وما تهرب منه سوف تتمنَّى أن تلتقي به .

وعندها تتشابك الأيدي وتتوحَّد القلوب في مدينة الأبيض ولن ترى فيها إلَّا الحبَّ .

* * *

أمواتي الأعزَّاء

أخيراً وحدي معكَ بعد انقطاعٍ دام عشرين عاماً، قد تبدو لمَن يسمع تلك الكلمة طويلةً للغاية، إنَّها بالنِّسبة لهم عمرٌ كاملٌ، ولكنَّها مرَّتْ عليَّ كبضع ساعاتٍ لا أكثر، أتذكَّر زيارتي الأخيرة لكِ عندما أهديتكِ ثمار الفراولة النَّاضجة، فأنا أعلم تمام العلم كم أنتِ عاشقةٌ لها!، وضعتُها أمامي على كتلةٍ كبيرةٍ من الحجارة، أغريتكِ أن تتذوَّقيها، ولكنَّكِ كنتِ غاضبةً منِّي، تركتكِ ومضيتُ في عمق الأحياء الكئيبة المؤلمة أُفكِّر كيف تستطيع روحي أن تنبعث من جديدٍ؟، في كلِّ خطوةٍ أسمعكِ تتنهَّدين، أهي تنهيدةُ ألمٍ أم هي تنهيدة شوقٍ؟ .

تخامر ذهني العديد من الأفكار، سوف أحاول أن أبتكر السَّعادة، نَعَمْ، سأجعل تلك المرأة الرَّقيقة تشعر بالفرحة الغامرة مهما كلَّفني الأمر، حبستُ نفسي في هذا القفص الحديديّ المتين، وقذفتُ بالمفتاح في نهرٍ عميقٍ حتى لا أحيد عمَّا رسمتُه لنفسي أو تثنيني فظائع الحياة، أصبحتُ لا أهتمُّ إلَّا بتلك التَّعاليم التي أسير عليها، وكأنَّها قدري منذ أن خلق الله الأرض، كلُّ همِّي الدِّراسة في كلِّيَّة الطِّبِّ والبيت للمذاكرة،

وبعض الأفكار التي تراودني، عندما أخلد للنَّوم أشعر أنَّ جسدي يمتلئ عن آخره بدمامل متقيِّحةٍ تؤلم روحي، حينها أتصوَّر أنِّي لا أحتاج لشيءٍ أكثر من البوح، البوح لك أنتِ لا غيركِ .

مُفعم أنا دائماً بالأوهام أسير بين الأحياء ولكن قلبي يرقد مع الأموات ووسط الصَّخب الدَّائم أسمعهم يعزفون تلك النَّغمات البهيجة التي تدفع أيَّ إنسانٍ للحلم.

شوقي إلى تلك الضِّحكة ينهش فؤادي ويلتهمني، تخرَّجْتُ ولَمَعَ نجمي ليس في سماء الطِّبِّ فقط، ولكن أيضاً في سماء الأدب، صرتُ طبيباً يعالج أوجاع المرضى من ذلك المرض اللَّعين، ولكنِّي عجزتُ عن علاج أوجاع روحي التي لا تملُّ.

كتبتُ حكاياتٍ عن الألم والسَّعادة، كتبتُ عن الموت والحياة، ولكنِّي لم أستطعْ أن أخطَّ حرفاً واحداً عنكِ، لم يسعفني القلم كي أصف شمس الصَّباح الطَّالعة، وبرغم كلِّ مَن حولي والنَّجاح السَّاحق الذي أهديتُه لكِ وكان من أجلِكِ مازلتُ في اللَّيالي المظلمة أتحوَّل إلى ذلك الطِّفل المذعور الذي يتلمَّس طريقه في الظَّلام كي يَصلَ إليكِ، لقد حظيتُ بوجودك الدَّائم في حياتي، ولم أصدِّق يوماً كلماتكِ أنَّ كل التُّعساء هم مَن يموتون في صمتٍ.

واليوم لقد جلوتُ عنّي الخجل الحقير الذي كنتُ أسيراً له سنواتٍ طولاً، ندمتُ على حماقاتي الكبرى، أعترف بذنبي، ولكنَّكِ تعلمين الحقيقة، أقف أمام البيت الكبير ولا يفصلني عنكِ سوى صعود تلك الدَّرجات والعبور، أشعر أنَّ النَّسيم يحمل رائحتكِ كي يغريني، تقدَّمتُ وعبرتُ، تلفَّظتُ ببعض الكلمات لا أعلم ما هي تلك الكلمات المنفلتة، ابتغيتُ الفرار ولكن طيور آمالي المغرّدة دفعَتْني؛ لأكمل المسير ككائنٍ بالغ الهشاشة، وما هي إلَّا بضع خطواتٍ لم أخطئْ فيها الطَّريق رغم مرور عشرين عاماً كاملةً، وقفتُ وقلتُ بصوتٍ متردّدٍ: السَّلام عليكم أمواتي الأعزَّاء.

تقدَّمتُ أكثر، شعرتُ أنَّ قدمي تعجز عن حَمْلي، جلستُ فوق الرُّكام الأصفر أمامكِ أتصبَّبُ عرقاً، ما أشدَّ رعبي واندهاشي!، لقد نبَتَ حول قبركِ يا أمّي إكليلٌ من الفراولة مزهرةً، ثمارها ناضجةٌ، ما أجملها!، وما أقساها!، لقد تغذَّتْ ونمَتْ منكِ أنتِ، تفتَّحَتْ واستنشقَتْ عبير الحياة من رحم الموت، سوف أحكي لكِ ما صنعَتْه الحياة بي، لن يفوتكِ شيءٌ صغيراً كان أم كبيراً.

وأخيراً ستمتلك الصَّمت الذي يلفُّ الكون من حولنا ولا وجود للهواء الرَّاكد.

* * *

طرخُ البحرِ

أزحتُ ستائر الشُّرفة، وفتحتُها على مِصراعيها؛ ليتسلَّلَ ضوء القمر ويدخل غرفتي دون استئذانٍ، ويُلقي بضوئه الفضِّيّ على سريري، أستنشق رائحة الهواء الذي تتفتَّح معه كلُّ شراييني، ولكن هواء اللَّيلة مُحمَّلٌ برائحة طَمْي النِّيل، ففي هذا الشَّهر من كلِّ عامٍ يفيض النِّيل؛ ليجودَ بالخير والرَّخاء على أهل الوادي، ولكنْ مع كلِّ هذا الرَّخاء قد يأتي بغضبِه العاصفِ؛ ليُجرِّف كلَّ ما في طريقه دون رحمةٍ، كان بيت أبي على النِّيل مباشرةً، ولكنه كان مبنيًّاً على تلَّةٍ عاليةٍ تحميه من غضب النِّيل، وتسمح لنا بمشاهدةٍ ساحرةٍ لضفَّتِه الجميلة، واستنشاق هوائه العذب، وفي حَضرة النِّيل والقمر لا أستطيع التَّفكير إلَّا في نعيم ذلك الشابِّ فارع الطُّول بشعره المُجعَّد وبشرته السَّمْراء التي لفحَتْها شمس النَّهار؛ فأضافَتْ له جَمالا أخَّاذاً لم يكن له مثيلٌ بين شباب القرية.

لمحتُه لأوَّل مرةٍ عندما خرجَتْ كلُّ البلدةِ لتشاهد السَّفينة الغارقة وحمولتها الطَّافية، كانتْ تحمل شحنةً من التُّفاح اللبنانيّ، ولم يحالفها

الحظُّ عندما هاجمَتْها العاصفة في البحر الأبيض المتوسِّط قبالةَ سواحل بلدتنا الصَّغيرة، مالَتْ على جانبِها الأيسر، وبدأَتْ مراكبُ الصَّيد الصَّغيرة تلتقط طاقمَها؛ لتنقذَه، في حين اختارَت الحمولة السِّباحة في مياه المتوسِّط، واقتربَتْ من الشَّاطئ لتتلقَّفها أيدي الكبار قبل الصِّغار.

كان لون التُّفاح أخضرَ لامعاً وأحمرَ قانياً اكتسى الشَّاطئ به حتَّى ظننتُ أنَّ أبي لن يعود من رحلة الصَّيد القادمة وهو يحمل كلَّ أنواع الأسماك، بل سيحمل كلَّ أنواع التفاح.

وقفتُ بعيدةً عن الشَّاطئ أتوارى عن عيون القاصي والدَّاني، شردتُ للحظةٍ وأنا أنظر للأطفال يصيحون وهم يلتقطون التُّفاح، وفجأةً وجدتُ أمامي نعيماً.

ولأوَّل مرةٍ أكون في مواجهةٍ حقيقيةٍ مع رجلٍ غريبٍ كنت أعرفه حقَّ المعرفة، ففي قريتنا الصَّغيرة الكلُّ يعرف بعضهم بعضاً، ولكنْ تلكَ الحقيقةُ عاريةٌ من الصِّحَّة، الواقع أنَّ الشباب لا يعرفون كلَّ بنات القرية في حين أنَّ البناتِ يعرفْنَهم ويعرفْنَ أسماء آبائهم وأمَّهاتهم، ننظر

إليهم من خلال الشُّرفاتِ الموصَدة، ونستمع إلى حكايات خالتي أمِّ شادية الخاطبة عن ذلك وتلك.

دارَتْ في رأسي أحداثٌ كثيرةٌ خلال الثَّواني المعدودة التي وقفَها في مواجهتي، لم ينطق ببِنْت شفةٍ، بل مَدَّ يده لي بتفَّاحةٍ حمراءَ بلون الورد البلديّ، نظرتُ له وللتُّفَّاحة، والتقطْتُها بسرعةٍ، وأدرْتُ وجهي الذي لم يلمحْ منه إلَّا القليل للحظاتٍ، ونظرتُ له فلم أجدْه أمامي كأنَّه طيفٌ ظهر لثوانٍ معدودةٍ واختفى، ولكنَّه ترك لي الدَّليل؛ ليؤكِّد لي أنَّه حقيقةٌ، وأنِّي لم أكنْ أغطُّ في ثُباتٍ عميقٍ.

وفي طريق العودة للبيت كنتُ أحتضن التُّفَّاحة بكلتا يديَّ وأنا هائمةٌ لم أسمع من أحاديث البنات إلَّا هَمْهَماتٍ غير واضحةٍ، ولكن دائماً تأتي الرِّياح بما لا تشتهي السُّفن، باغتَتْني صديقتي بسؤالٍ لم يكن في الحسبان حين قالَتْ: لَمْ تقتربي معَنا من الشَّاطئ ولَمْ تتحركي من مكانكِ، فمَن الذي أهداكِ تلك التُّفَّاحة؟، وما الحالة التي أنتِ عليها؟؟.

ابتسمْتُ وقُلتُ: أنا لستُ شاردةً، وتلك التُّفَّاحة أهداها إليَّ البحرُ.

* * *

ومضات الماضي البعيد

كانَتْ في غرفتها الصَّغيرة تلعب بدُمْيتها حين سمعَتْ من خلال الباب المُغلَق صوتَ ضحكات دلالٍ ورعونةٍ، ضحكات زوجة أبيها آتيةٌ من الغرفة الأخرى، فتحَتْ باب غرفتِها لتصطدم بِظَلامٍ يعمُّ المكان إلَّا من ذلك الضَّوء المتسرّب من أسفل باب غرفة أبيها.

آلَمَها ذلك الصَّخَبُ، وأخذَتْ تحدِّث نفسَها: كلُّ شيءٍ في البيت كما هو، الأثاث الفاخر والتُّحف التي تملأ المكان، لم ينقصْه شيءٌ غير أمِّي التي كانَتْ تجلس بجواري كلَّ ليلةٍ وتضع دُميتي في حضني، كانَتْ تلك الدُّمية آخر هديَّةٍ أهدَتْها لي في عيد ميلادي التاسع.

لَمْ تطفئْ يوماً أضواء البيت؛ لأنَّها تعلم أنِّي أخاف الظَّلامَ، ولَمْ أسمع أبي يوماً يحدِّثها بتلك الرِّقَّة والنُّعومة كما يحدِّث زوجته الآن، حتى يوم وفاتها لم يبدُ عليه الحزن ولم يذرفْ دمعةً، حسبْتُه كان منتظراً ذلك اليومَ، وما مرَّتْ أشهرٌ قليلةٌ حتى تزوَّج عروسَه الجديدة حنان التي لا تعرف أيَّ معني للحنان، معَها تحوَّل كلُّ شيءٍ في حياتي الصَّغيرة.

تقدمتُ بخطواتٍ متردّدةٍ داخل ظلام الصَّالة، لَمْ أدرِ ماذا أفعل؟، فتحتُ باب الشَّقَّة ولَم أغلقْه، بل خرجتُ ونزلتُ درجاتِ السُّلَّم بهدوءٍ، لا أعلم لماذا فعلتُ ذلك؟ أو ماذا ينتظرني؟، كان الشَّارع خالياً من المارَّة وكذلك من السَّيَّارات؛ فقد انتصف اللَّيل، مشيتُ خطواتٍ قليلةً حتى دخلتُ شارعاً جانبيًّاً، ثمّ جلستُ على الرَّصيف بجوار عمود النُّور، ونسيتُ خوفي وذلك البرد الذي يسري في أوصالي، نظرتُ إلى السَّماء أبحث عن نجمةٍ أرى من خلالها وجه أمِّي، لكنَّها كانَتْ ليلةً خاليةً من النُّجوم.

وقعَتْ عيني على قطعةٍ من الطَّباشير ملقاةٍ بجوار الرَّصيف، أخذتُها ورسمْتُ على الأسفلت أحلامي التي ضاعَتْ، وجه أمِّي الجميل عندما تبتسمُ، وأبي عندما كان يداعب شعري الأسود النَّاعم وينظر في عينيَّ، وفجأةً تنبَّهتُ إلى الضَّوء القادم من بداية الشَّارع، ضوء سيَّارة نقلٍ كبيرةٍ، انزعجتُ وصعدتُ إلى الرَّصيف، توقفَتِ السَّيَّارة ونظر إليَّ السَّائق من خلال الشُّبَّاك فشعرتُ بقلبي كأنَّه بندول للسَّاعة يكاد يقفز من صدري.

ملامح السَّائق مُخيفةٌ وكأنَّه خرج للتوِّ من فيلم رعبٍ، رأسه الضَّخم، أنفه الكبير، أسنانه البُنِّيَّة، لم يلفظْ كلمةً واحدةً ولكنِّي ركضتُ

مسرعةً في اتّجاه البيت، صعدتُ السُّلَّمَ مسرعةً على عكس هبوطي، كان الباب مازال مفتوحاً، دخلتُ وأغلقتُه بقوَّةٍ لعلَّ أبي يخرج من غرفته صارخاً فيَّ يعنِّفني أو حتى يصفعني فيطلق صراح دموعي كي تهدأ نفسي، لكنَّه كان مشغولاً بمَن هو أهمُّ من الباب فلم يلتفتْ .

توجَّهتُ لباب غرفتي، ألقيتُ نظرةً حزينةً على الصَّالة الخالية من الضَّوء والدِّفء، أغلقتُ بابي، استلقيتُ على سريري وأنا أواسي دُمْيتي ورُحْتُ في سُباتٍ عميقٍ.

* * *

تويتة طلاق

تزوَّج كاملٌ من فادية منذ ما يقرب من عامٍ ونصفٍ، هي مرشدةٌ سياحيَّةٌ وهو يكره العمل، يذهب في بعض الأحيان للشَّركة التي يمتلكها أبوه، لا يهوى شيئاً في هذه الحياة أكثر من وسائل التكنولوجيا الحديثة، دائم التَّفاخر بما لديه من أجهزة كمبيوتر ولاب توب، لكنَّه أكثر تعلقاً بأجهزة الهواتف المحمولة، دائماً يطمح إلى أحدث الموديلات والإكسسوارات الخاصَّة بها، لم يفكِّر أن يكون أبَاً، ويردِّد أنَّ الأطفال تأتي هذا العالم لتقتل طموح الآباء والأمَّهات.

كان هذا الكلام يضرم النَّار بينهما، وينتهي الأمر أن يتَّهِمَ كلٌّ منهما الآخر بالأنانيَّة، يوماً بعد يومٍ تتَّسع الفجوة حتى صار الأمر كأنَّهم يعيشون كغرباء تحت سقف بيتٍ واحدٍ، وكأنَّ ستائر من القطيفة الثَّقيلة أُسدلَتْ على الحياة.

دائماً تباغت فادية الومضات الورديَّة التي كانَتْ ترسمُها لحياتها، وذلك العُشُّ الجميل الذي تحوَّل بفعل المشاكل إلى وكرٍ كئيبٍ مُظلمٍ، كانَتْ عيونها الضَّارعة تستجدي الحياة، تبكي على أطلالٍ هُدمَتْ قبل أن تُبنى من الأساس.

تعود فادية من عملِها وقد انتابها بعض الإرهاق، تبحث عن كاملٍ في البيت دون جدوى، تحاول الاتِّصال به ولكنْ هاتفه مُغلقٌ، لم تشعر بالقلق فهي معتادةٌ على تلك الأفعال، جلسَتْ تحدِّثُ نفسها أنَّ تلك الحياة المشحونة ما هي إلَّا غيمةٌ صغيرةٌ سوف تمرُّ وتنقشع دون رجعةٍ.

غربَت الشَّمس واللَّيل احتلَّ الكون، دلفَ كاملٌ من باب الشَّقَّة، وصفع الباب بقوَّةٍ، خرجَتْ مسرعةً من غرفة نومها، اقترب منها وهمسَ لها : كم أنتِ جميلةٌ .!

ردَّتْ مسرعةً : شعرتُ بالخوف عليكَ .

ضحك وجذبَها من يدها وأخرج من الحقيبة التي يمسكُها هاتف ماركة Apple وقال: إنَّه الأحدث، صديقي اشتراه لي من خارج مصر، نظرَتْ له وهي تلعنه وتلعن هاتفه، أحياناً تشعر بأنَّه مَلاكٌ، وفى كثيرٍ من الأحيان يكون الشَّيطان بعينه، أفاقَتْ من شرودها، وجدَتْه ما زال يتحدَّث عن التَّطبيقات المتوفِّرة للهاتف، وأنَّه سوف يستخدم أكثر من برنامج للمحادثة كي يتواصل مع أصدقائه، لم تردّ ببِنْت شفةٍ، أطلقَتْ زفرةً قويَّةً وقالَتْ: إنّها سوف تخلد للنوم، فلديها عمَلٌ في الصَّباح، أمَّا هو

فجلس مثل طفلٍ صغيرٍ سعيدٍ بلعبته الجديدة التي سوف يصيبه الفتور منها في القريب فيحطِّمها كي يركض وراء أخرى.

اقتربَتِ السَّاعة من السَّادسة مساءً، لم تعُد فادية، اتَّصل بها مؤنِّباً إيَّاها على التَّأخير، ردَّتْ بهدوءٍ: كنْتُ في عمَلٍ خارج المدينة، وأنا في طريق العودة تعطَّل الأتوبيس، ونحن في انتظار إصلاحه والعودة، ردَّ مُتذمِّراً كالأطفال: أنا لاشأن لي، في خلال ساعةٍ أجدكِ أمامي وانقطع الاتِّصال، طال انتظارها ولكن عاد السَّائق ومعه مَن يُصلح السَّيَّارة.

توقَّفَتِ السَّيَّارة أمام العمارة التي تقطن بها فادية، نزلَتْ على عَجَلةٍ لكن رنَّ هاتفُها معلناً وصول رسالةٍ، اسم المُرسل: كاملٌ، المضمونُ: أنتِ طالقٌ، نظرَتْ لها بذهولٍ وقبل أن تتحرَّكَ رنَّ الهاتف مرةً أخرى برسالةٍ أخرى بنفس المضمون، شعرَتْ أنَّ الدُّنيا تدور بها، باغتَتْها الرَّنَّة الثَّالثة، والمضمون أطول قليلاً: أنتِ طالقٌ بالثَّلاثة، دخلَتْ مسرعةً وصعدَت السُّلَّم، فتحت باب الشَّقَّة وهي تلهث، وجدَتْه يقف في منتصف الصَّالة يضحك و يدور حول نفسه قائلاً بصوتٍ ممتلئٍ بالجنون: لقد دوَّنْتُها على تويتر "أنتِ طالقٌ"، إنَّها أعظم تويتاتي.

أغمضَتْ عينيها وأُسدل السِّتار.

* * *

الزُّهورُ المُحترقَةُ

هكذا نشأتُ على حافَّة عالَمَين مختلفين، وفي عالَمي لا تسير الحكاية وفق خُطَّةٍ موضوعيَّةٍ، بل تسير بنسماتٍ من الحبِّ الخالص الذي يحرِّك الشِّراع فتكون النَّتيجة عكس التَّيَّار، منذ أن كنتُ صغيرةً كان هناك ارتباطٌ قويٌّ بين الموت والحياة والجنَّة والنَّار، نَعَم، فالطَّريق الوحيد الذي كان يُوصلني إلى مدرستي هو طريق المقابر، طريق ضيِّقٌ جدَّاً يشبه الشَّريط الضَّيِّق، على اليمين سُور المقابر حيث يقبع الموت والوحشة ...

الصَّمت المُطبق الذي يسحب الرُّوح بهدوءٍ شديدٍ، أمَّا في الجهة المقابلة بيت سعدون لا يختلف في طبعه عن الموت فهو شخصٌ قاسي القلب دائم الصُّراخ بكلِّ مَن يمرُّ ببيته، ينهر الأطفال دون سببٍ لكن مع الأسف كان يمتلك حديقةً صغيرةً لا يُوجد بها غير شجرةٍ واحدةٍ ليس لها مثيلٌ، عملاقةٌ تُزهر ورداً جوريَّاً لونه أحمر، شذا الورد دائماً في معركةٍ قائمةٍ مع رائحة الموت.

في الصَّباح وأثناء ذهابي إلي المدرسة أُطرِق باب الحديقة كي أصطحب هناء ابنته إلى المدرسة، فهي زميلتي في الفصل، وفي الحقيقة لم تكن من الأصدقاء المقرَّبين، فقد كانَتْ ثرثارةً فضوليَّةً، وفي انتظاري لها أقضي بعض الدَّقائق وأنا أنظر للورد وأستنشق عبيره.

لقد وقعتُ في غرام الورد وصارَتِ الحديقة فردوسي الذي أحلم بامتلاكه يوماً ما ، سعدون رجلٌ شديد البخل، لم يُهدِ أحداً وردةً واحدةً، كانت تجفُّ على أغصانها ثمَّ يقوم بجمعها، ويصنع حفرةً عميقةً في الأرض، ويُلقي الورد ويقوم بإحراقه، كنتُ أبكي لمصير الورد، أودُّ أن أنتزع قلبه الميِّت من صدره، وأجعله يخضع لصدماتٍ كهربائيَّةٍ؛ ليعود له نبضه ويتألَّم من أجل الورد.

مرَّتْ سنواتٌ لم أعد أرى هناء لزواجها وسفرها بالخارج، لكنِّي كنت أمرُّ من نفس الطَّريق وأرى الشَّجرة بأغصانها المحمَّلة بالورد، فتشرق روحي وتعود لي ذكريات الطُّفولة، ألقي التَّحيَّة على سعدون يوميَّاً، وهو يجلس على كرسيِّه أمام الباب، مرَّتْ أيَّامٌ دون أن أراه، وعندما سألتُ عنه علمْتُ أنَّه مُصابٌ بالحُمَّى، لكنَّه يستجيب للعلاج، وكانَتْ تلك الأيام أفضل أيَّام حياتي، أمرُّ بزوجة سعدون فتجمع لي باقةً من الورد وتُهديها لي.

مرَّت الأيام الورديَّة وعاد سعدون، ولكنَّه به مسٌّ من جنونٍ، يلعن الشَّجرة ويحدِّثها بهَمْهَماتٍ غير مفهومةٍ، صار عقله مَحموماً ومُشوَّشاً.

ذات صباحٍ أشرقَتِ الشَّمس القاسية بأشعةٍ مضاعفةٍ، أمسك سعدون مِنشاراً كهربائيَّاً وقطع الشَّجرة بكلِّ قسوةٍ، سقطَتْ وهي تغرق في آلامٍ هائلةٍ، وأخيراً استسلمَتْ لقدرِها، مات حُلمي الأبديُّ معها وعاد هو لجلسته أمام الباب مثل مومياء عتيقةٍ يضحك ويتفاخر بانتصاره على رأس الشَّيطان، لقد حوَّل الفردوس إلى جحيمٍ.

غيَّرتُ طريقي للأبد حتى لا أمرَّ بذلك المنزل في الشَّارع الكئيب.

* * *

السنيورةُ والمجذوبُ

بدأ اللَّيل يجمع ستائر الظَّلام؛ ليعلن الرَّحيل، بدأ الضَّوء في الأفق يشقُّ عنان السَّماء، ويفرض سيطرته على الكون مع اندفاعٍ جارفٍ لزقزقة العصافير، خرج المُصلُّون من المسجد بعد صلاة الفجر وتوقَّفوا أمام ذلك المشهد الغريب، رجلٌ يتَّكئ على الجدار الشَّامخ المقابل للمسجد ويصيح بصوتٍ مرتفعٍ على كلِّ مَن يمرُّ به: حرماً يا حاجُّ، الكلُّ ينظرون إليه ثم يتبادلون النَّظرات فيما بينهم لحظاتٍ، وكأنَّ على رؤوسهم الطَّير، وبدأ السُّؤال: مَن هذا الرَّجل؟.

لم يكن موجوداً بالأمس في القرية لا يعرفه أحدٌ، وكأنَّ الأرض انشقَّتْ ليظهر دون مقدِّماتٍ تقدَّم الحاجُّ عبد الرَّحمن من الرَّجل بضع خطواتٍ؛ ليسأله مَن يكون؟

وينهي ذلك الصمت الذي أطبق على أرواحهم، كلَّما تقدَّم اتَّضحَتْ ملامح الرَّجل، فهو في العقد الثَّالث من عمره أشعث الشَّعر، له لحيةٌ كَثَّةٌ تصل لمنتصف صدره، مهلهل الثِّياب، له ابتسامةٌ عريضةٌ.

اقترب الحاجُّ أكثر، همس له الرَّجل ببضع كلماتٍ، وأشار بيده إلى الجهة الغربيَّة من البَلدة، تركه الحاجُّ وعاد مسرعاً إلى النَّاس حيث كانوا يجتمعون في نصف دائرةٍ، قال: يبدو عليه أنَّه من أهل الله، فدَعُوكم منه .

همَّ الرجال بالانصراف، كلٌّ إلى حال سبيله، بينما كان عبد الرَّحمن شارد الذِّهن يتمتم ببعض الكلمات لم يستوضحْها أحدٌ، افترق الجميع وظلَّ حسَن صاحب خان الحدادة يمشي بجوار رفيق عمره والصَّمت يسير معهما ..

توقَّف حسَن وقال: ماذا قال لك ذلك المجذوب يا عبد الرَّحمن؟.

تلعثمَ وقال: كان يسأل عن فتاةٍ اسمها السنيورة، لكنِّي قلتُ له: لا تُوجد فتاةٌ في القرية كلِّها بذلك الاسم، صمتَ لحظةً ثمَّ نظر بداخل عيني، وقال: أتعرفُ لقد خرجْتَ تشقُّ ظلام اللَّيل لأداء الصَّلاة وجلستَ تسبِّح حتَّى الشُّروق، وخرجتَ من المسجد تمشي بين النَّاس، فُزتَ وربِّ الكعبة، ولكنَّها الأخيرة عند صلاة العصر يصلُّون عليكَ وتخرج من ذلك الباب محمولاً على الأعناق، أطلق حسَن ضحكةً عاليةً وربتَ على كتف

عبد الرَّحمن، وقال: لقد تغيَّرَ لون وجهكَ، وارتعدَتْ فرائسكَ، أنت رجلٌ مؤمنٌ لا يعلم الغيب إلا الله.

ردَّ بصوتٍ مرتجفٍ: لا أخفي عليك لقد اخترقَ صوته قلبي، نظراته ماكرةٌ ما أقسى ضيفنا الجديد!

دخل عبد الرَّحمن إلى بيته ليجدَ زوجته في انتظاره، وقد أعدَّتْ طعام الإفطار، استقبلَتْه بوجهٍ مستبشرٍ، وقالَتْ له: حَرَماً ياحاجُّ، لم ينطقْ ببنت شفةٍ، خامرها شعورٌ غريبٌ، تقدَّمَت إلى طاولة الطَّعام، ووضعَتْ أمامه كوباً من الشاي، سألَتْه: لقد خرجْتَ مشرق الوجه لكنَّكَ عدْتَ من الصَّلاة بوجهٍ آخر، جزَّ على أسنانه وقال: لا شيء، ولكنِّي أشعر ببعض الإرهاق، سوف أغفو قليلاً على الأريكة كي أستنشق الهواء.

وفي تلك الأثناء دخل حفيدُه يجري ليلقي بنفسه في حضن جدِّه، نظر له طويلاً ثمَّ ألصق قُبلةً على جبينه وكأنَّها قُبلة الوداع الأخيرة.

كلُّ شيءٍ في القرية يسير على وتيرته اليوميَّة ما عدا وجود ذلك المجذوب الذي يتجوَّل في دروبها، وكأنَّه يحفظها عن ظهر قلبٍ، تجمَّع الأطفال حوله يُلقون عليه الحجارة وهو يصرخ ويتوعَّدهم حتى نهاهم بعض المارَّة عن ذلك، جلس في ظلِّ شجرةٍ كبيرةٍ، أخرجَتْ له بعض النِّساء

كسراتٍ من الخبز وقطعاً من الجُبن الأبيض وكلُّهن أَمَلٌ أن يدعو لهنَّ ولأبنائهنَّ، ولكنَّه انشغل في مضغ الطَّعام دون أن ينظر إليهنَّ، فسألَتْه إحداهنَّ وهي تنظر إليه باشمئزازٍ: أيُّ طائر شؤمٍ ألقى بكَ على أرضنا؟، رفع بصره وضحك ملْء شفتيه وقال: أتيتُ لتحقيق الوعد الأبديّ.

قام ومشى بخطواتٍ متمهّلةٍ ينظر للأرض لكنَّه يرى النَّاس التي تقف على جانبي الطَّريق يتأمَّلونه، خرج صوته متردِّداً وقال: مَن منكم يعرف السنيورة؟

إنَّها أميرتي المنفيَّة في جزيرتكم، لم يتلقَّ ردَّاً، ولكنَّه سمعهم يضحكون ويتهامسون فيما بينهم متبادلين الإشارات وغمزات الأعين.

صرخ مهدِّداً إيَّاهم: إن لم أجد أميرتي، فسوف أشعل نار الشرِّ الخامدة في الأفق.

اقترب أذان الظُّهر وعلى غير العادة لم يستيقظ عبد الرَّحمن من نومه، صنعَتْ له زوجته قدحاً من القهوة، ووضعَتْه على الطَّاولة، نادَتْ عليه: الصَّلاة حانَتْ، الصَّلاة حانَتْ، ردَّدَتْها ثلاث مرَّاتٍ، ولم تتلقَّ منه ردَّاً.

اقتربَتْ لتنبِّه، لحظاتٌ من الصمت، وأطلقَتْ آهةً تفيض بالوداع، وارتعشَتْ ارتعاشاتٌ مريرةٌ سرَتْ في جسد حسن عندما وصله خبر رحيل عبد الرَّحمن، وقف يبكي ويقصُّ ما حدث في الصَّباح، ونذير الشُّؤم الذي حطَّ على القرية، انشغل النَّاس عن الموت والميِّت وظلوا يردِّدون ما قاله المجذوب .

انقضى منتصف النَّهار وأطلق المؤذِّن العنان لتكبيرات العصر، وبعدها صلَّى الرِّجال صلاة الجنازة، وخرج عبد الرَّحمن للمرَّة الأخيرة من المسجد محمولاً، واتَّجه به المُشيِّعون للجهة الغربيَّة حيث تُوجَد مقابر القرية ...

انتهَت الجنازة وانقسمَتِ القرية إلى نصفين: نصفٍ يرى أنَّ المجذوب شخصٌ له كراماتٌ، والنِّصف الآخر يقول: إنَّه مُشعْوذٌ يداعب الأفاعي وله عينٌ مسحورةٌ .

انتاب الكلَّ الخوفُ، وصارت الرَّجفة في قلوبهم، وفي اليوم التَّالي لم تشرق الشَّمس ومرَّتْ غيمةٌ قاتمةٌ كَسَتِ القرية حتَّى خُيِّل للنَّاس أنَّ الأرض صار لونُها رماديًّاً، الكلُّ يتفادى الوقوف أمام المجذوب، فالنِّساء

منعْنَ أطفالهنَّ من اللَّعب في الشَّارع، وأغلقْنَ أبواب المنازل والنَّوافذ، وعمَّ الهدوء، كأنَّ القرية خاويةٌ على عروشها.

صار يمشي وينادي عليها: أين أنتِ يا أميرتي؟، الموت غريمي وأنتِ لا تستطيعين الفرار منه، انتصف النَّهار ورغم ذلك بدأَتِ العتمة الرَّماديَّة تفرد شراعَها، اقترب المجذوب من شاطئ النَّهر، وبدأ في النَّحيب، وفجأةً ظهر ذلك الشَّيخ المُسنُّ بلحيته الثَّلجيَّة، وهامَتِه البيضاء، وقال بصوتٍ رخيمٍ: لماذا تصرخ وتنتحب؟

إنَّ السَّعادة تجعل الرُّوح طيّبةً وتلين بها القلوب، قال بصوتٍ مرتعشٍ: يا شيخي، أتستطيع إخماد النَّدامات القديمة؟

لم يردَّ عليه الشَّيخ وقال له: ارحل، قال له: لن أرحل حتى أجدَها، إنَّها تحارب الآن ولا أحد غيري يملك الدَّواء، دلَّني عليها .

ردَّ الشَّيخ: لقد أخطأتَ العنوان يا ولدي، لا تُوجد فتاةٌ بهذا الاسم هنا، قال: أنا لا أريد بكم شرَّاً ولكن إن لم أجدْها وخسرتُ معركتها فلكم الويل، ربَتَ الشَّيخ على كتفه، وقال: إن كانَتْ تسكن قريتنا فسوف أجدُها لكَ، ولكَ خبرٌ مني بعد أذان الفجر بإذن الله.

انقضى الفجر الأوَّل والثَّاني حتى السَّابع دون خبرٍ، لم يجدوها لكن إحدى الجدَّات انتفضَتْ وقالَتْ: إنَّ القبطان العجوز الذي كان يسكن جنوب البلدة لديه فتاةٌ مريضةٌ منذ أن كان عمرها عشرة أعوامٍ لم تغادر البيت لا تتحدَّث ولا تسمع، حزن القبطان لمرضِها، ترك الدُّنيا وجلس هو وزوجته بجوارها، لم ينتظر الشَّيخ أن تُكمل الجدَّة كلامها بل همَّ مسرعاً إلى منزل القبطان، وأشار للمجذوب أن يتبعه، وكذلك تبعه الكثير من رجال القرية .

طرق الشَّيخ الباب، فتح القبطان ولم ينتظر المجذوب الإذن بالدُّخول، أجهش بالبكاء وهو ينظر للفتاة في العقد الثَّاني من عمرها، رائعة الجمال، قال بصوتٍ مسموعٍ : أيَّتُها السَّاحرة الجميلة، هل يستطيع الزَّمان أن يكسر التَّناغم المحتدم في خطاكِ والرَّشاقة المنيعة لقوائمكِ؟ .

لستِ بمريضةٍ يا أميرتي، إنَّها أسقام العشق، لا بأس عليكِ، اليوم بعيداً عن العالم الهزليّ، بعيداً عن جميع الآثام سيتمُّ الشِّفاء، وبعدها أودعِيني يا أميرتي في قبري السِّرِيّ ولا تذرفي الدُّموع ، جذبَها من يدها، وكانَتْ تمشي الهُوينى بوقارٍ.

لم يعترض طريقهما أحد حتى القبطان كان ينظر لهما مدهوشاً بما يحدث حتى وصل بها إلى حافَّة النَّهر، دفعها للنُّزول وقال لها:

اِهبطي عبر منخفضٍ خفي حتى أعماق روحي يا حبِّي العفيف، ياحبَّة المِسك الكامنة في قلبي، نشرَ القمر ضوءه الفضِّيَّ على صفحة النَّهر، وظلَّت الفتاة مُمسكةً بيده حتى غمر الماء رأسها، شهقَتْ عدَّة شهقاتٍ، تركها واتَّجه للشَّاطئ وهي خلفه يتساقط الماء من شعرها المنسدل وملابسها كأنَّها فتاةٌ من لجينٍ مسحورٍ، لملمَ اللَّيل ستائره لتبزغ ضحكاتها مع أوَّل خيوط النَّهار، التفَتَ الشَّيخ إلى المجذوب وقال: إلى أين؟

قال المجذوب: لقد تحقَّق الوعد الأبديُّ وانقضى الأمر.

* * *

أحلامٌ صغيرةٌ

اليوم الموعود الذي كنتُ أنتظره جاء، أنهيْتُ آخر امتحانٍ لي في الصَّفِّ الثَّاني الابتدائيّ، ووصلتُ للمسامحة الكبيرة كما تقول جدَّتي، عدتُ إلى البيت والسَّعادة الغامرة تجتاح قلبي، من اليوم لن أستيقظ مبكِّراً، ولن أضطرَّ أن أحمل حقيبتي الجلديَّة الثَّقيلة على ظهري، أسير بها في طريقٍ طويلٍ حتَّى أصل إلى المدرسة أقف في الطَّابور وأنا أستمع إلى إذاعة الصَّباح التي في أغلب الأحيان لا نسمع منها شيئاً؛ لأنَّ الميكروفون أصابه العطَب أو تهالكَ، ثمَّ يتقدَّم الأستاذ عبد المنعم ويشير إلى ثلاثةٍ من الطُّلَّاب كي يحيُّوا العلم.

يأذنون لنا بالتوجُّه إلى الفصول، نجلس وننتظر دخول الأستاذة كريمان، وهي امرأةٌ قصيرةٌ بدينةٌ، انتفخ بطنها وتثاقلَتْ خطواتها، تدخل وفي يدها عصا كبيرةٌ أكثر من نصف طولها، تكتب التَّاريخ على طرفي السُّبُّورة بالهجريّ والميلاديّ، وفي المنتصف البسملة، ثم تُلقي بنفسها على الكرسيّ وكأنَّها تسقط من الطَّابق العاشر، تطلق تنهيدةً تعبر عنان السَّماء وتصرخ فينا دون سببٍ: مَن منكم يمتلك الجرأة ويفتح فمَه

فسأطيح به عبر النَّافذة، فأُسرع في وضع يدي على فمي، وأتخيَّل نفسي وهي تطيح بي من الطَّابق الثَّاني لأسقط أرضاً، يا ترى ماذا يحدث لي؟ بعدها نفتح كتاب القراءة وأبطال الكتاب هُم أمَل وعمر، تقرأ الأستاذة كريمان الدَّرس مرَّةً، وفي المرَّة الثَّانية تقرأ ونحن نردِّد خلفها جملةً جملةً ولا نملُّ من التَّرديد، أشعر بالضَّجَر وأنَّها أكثر الأفعال عبثيَّةً يمكن أن تحدث لي يوماً ما.

أعود إلى البيت بذلك الحِمل الثَّقيل على ظهري، أفكِّر في كم الصَّفحات من الواجب، أكتب الدَّرس عشر مرَّاتٍ كما أمرَتْنا فأشعر أنَّ يدي الصَّغيرة أُصيبَتْ بالشَّلل، يعاندني القلم وينكسر سنُّه مرَّاتٍ عديدةً ليضيِّع مني وقتاً أكبر، أسمع الأطفال الصِّغار في الشَّارع يمرحون، بينما أنا عاكفةٌ على الكتابة وفجأةً أتوقَّف عن استكمال الواجب، أفكِّر في أمَل وعمر، هما من العام الماضي يسكنان الكتاب المدرسيَّ لا يغادرانه، ألا يصيبهما الملل؟

ألَمْ يسأم عمر من الشورت البنِّيِّ القصير والقميص الأبيض؟

وأمَل لم تسعَ لتغيير فستانها الأحمر ولو مرَّةً واحدةً على مدار العامين، كما أنَّهما يتعرَّضان للكثير من الإهانة على يد الأطفال من الشخبطة

عليهم بالقلم، وقد يصل الأمر لتمزيق صفحات الكتاب وإلقائها في سلَّة المهملات .

أفكاري ترتحلُ إلى بعيدٍ، تتراءى لي صورتهما وهما يخرجان من الكتاب كلَّ يومٍ للَّعب معي وإخباري بالمزيد من أسرارهما داخل الكتاب...

انتهى العام ولكن صداقتي بهما لم تنتهِ، فلقد عقدْنا وعداً أبديَّاً بالصَّداقة.

* * *

البابُ الأخضرُ الكبيرُ

اليوم قبل الأخير من الشَّهر الكريم جلسَتْ جدَّتي في بهو البيت على حصيرةٍ من البلاستيك باللَّون الأزرق مزركشةٍ من الوسَط، وأمامها العديد من الأواني وصفيحةٌ متوسِّطة الحجم، بداخلها سَمْنٌ يتألَّق بلونه الذَّهبيّ، وفي المقابل تجلس أمّي وبين يديها المُنخل تغترف من الجوال الذي بجانبها وتقوم بهزِّ المُنخل بحركاتٍ متواليةٍ وكأنَّه إيقاعٌ ثابتٌ.

البيتُ كلُّه تحوَّل إلى خليَّة نحلٍ حتى يتمَّ صنع الكعك والبسكويت، أنظر لجدَّتي مريم وهي تجلس وكأنَّها قائدٌ عظيمٌ لا يكلِّف نفسه عبء الكلام، ولكن يكتفي بأن ينظر في اتِّجاهٍ معيَّنٍ حتى تستطيع إحدى خالاتي فكَّ شفرة تلك النَّظرة وتذهب مسرعةً في الاتِّجاه الصَّحيح وتأتي بما تريده جدَّتي، أتابع المشهد من بعيدٍ ولا أقترب.

جوٌّ من السَّعادة يسود المكان، لكن الحزن كان يحمِّل روحي فوق طاقتها، أشعر أنّي أضيع من ذاكرة أمّي، أمشي بخطى متوتِّرةٍ من بهو

البيت إلى غرفتي، أقف قليلاً أمام خزانة ثيابي المشؤومة أتفقَّدها ولا أجدها تزدان بفستان العيد.

أخرج مسرعةً لأجد الكلَّ منهمكاً في العمل، أقف طويلاً أمام الباب الأخضر الكبير للبيت والذي لطالما جذبَتْني النُّقوش الموجودة عليه، وتلك الحلقة النُّحاسيَّة التي تزيّنه دائماً، أتخيَّلُه باباً للعبور إلى الجنَّة.

خرجتُ وجلستُ على أُوْلى درجات السُّلَّم، ونظرتُ إلى السَّماء الغائمة وتلك الأشعة المتساقطة من خلف الغيمات، يأبى هذا الشِّتاء العنيد أن يرحل، أريد أن أشعر بدفء شمس الصَّيف وحدَّة ضوئها، أصبح قلبي في تلك اللَّحظة مفتوناً بذَرْفِ الدُّموع، كيف تنساني أمِّي وسط كلِّ هذا الهراء الذي يفعلونه؟.!

لم تذكر أنَّها حتى الآن لم تذهبْ إلى أمِّ عبده الخيَّاطة لاستلام فستاني، كيف يكون العيد دون فستانٍ جديدٍ؟! ...

اللَّحظات تمرُّ طويلةً، واليأس يلتهم من قلبي الأمل، استجمعْتُ شتاتَ نفسي وعدْتُ للدَّاخل، جلستُ بجوار جدَّتي، الكلُّ يضحك وأنا معهم لكن ضحكتي مبلَّلةٌ بالدُّموع التي لا يراها أحدٌ، وعندما تنجذب عيني للنَّظر في عين أمِّي أهرب على الفور بالنَّظر لأحد الأركان، إنَّه سوء

طالعي الذي يجعلني أحزن، سوف أصبر كالنَّملة الصَّبور التي تهوي في جميع الأركان تبحث عن شيءٍ فقدَتْه فلا تملُّ من عدم إيجاده.

انقضى اليوم وأنا على صمتي وفتوري، فلم أشعر مَن الذي حملني ووضعني في سريري؟ غرقتُ ليلتها في بحرٍ من الحزن الذي يتصاعد بداخلي، نمتُ طويلاً هرباً، وكانَتْ أحلامي متزاحمةً، أيقظَتْني أمّي، تطلَّعْتُ لها بعينين غائرتين وكأنّي لم أكن نائمةً بل عائدةٌ من عالمٍ آخر، تمتمتُ ببعض الكلمات التي تعكس اللَّامبالاة في صوتي فشعرتُ بلمستِها، نظرتُ لابتسامتها السَّاحرة وبنبرةٍ بالغة العذوبة والحميميَّة قالَتْ: ألا تريدين أن تقيسي الفستان الجديد؟.

سمعتُ تلك الكلمات وكأنَّها قصيدةٌ متناغمةٌ، قفزتُ من فوق السَّرير أكاد أرتطم بالأثاث لأَجْدَه معلَّقاً أمامي، وبسرعة البرق كنتُ أرتديه وأنظر لنفسي في المرآة معجَبةً بلونه الورديّ، والشَّريط العريض على الوسط جعله أجمل، احتضنَتْني أمّي بشدَّةٍ ثم ألصقَتْ قُبلةً على جبيني، خلعْتُ فستاني الجديد وعلَّقْتُه.

ارتديتُ ملابسي ثمَّ أمسكَتْ بيدي الصَّغيرة وذهبنا إلى محلِّ عمِّ مسعد، لم يكن يبيع شيئاً محدَّداً، لكنَّه يبيع كلَّ شيءٍ من الإبرة حتى الصَّاروخ

كما يقولون، طلبَتْ منه أمّي حذاءً على مقاسي، دخل إلى المخزن وعاد وهو يحمل العديد من علب الكرتون وفتحها، ألوانها جميلةٌ لكنّي اخترت حذاءً ورديًّاً بفيونكة بيضاءَ يناسب لون فستاني.

لم تكتفِ أمّي بذلك بل اشترَتْ لي أيضاً شريطين من الستان لشعري، ودفعَتْ ثمن كلِّ ذلك وعدنا إلى البيت وأنا أشعر أنّي لا أسير بل أطير من فرط السَّعادة.

وصلنا فوقفتُ أتأمَّل الباب الأخضر الكبير ثمَّ عبرتُ إلى جنَّتي الصَّغيرة كي أنعم بالعيد بداخلها.

* * *

السِّمَّاوي

تتسارع دقَّات قلبي كلَّ صباحٍ عندما أجده يقف على رأس الشَّارع ينظر إليَّ نظرةً ساخرةً، أحاول المرور من أمامه لكنِّي أضعف مِن أن أجازف بخطوةٍ واحدةٍ في اتِّجاهه.

أقف مكاني كعمود إنارةٍ غُرس في الأرض وهو الآخر يتسمَّر في مكانه لا يحاول التقدُّم أو التقهقُر للخلف حتى أمرَّ.

يضيق الشَّارع في عينيَّ حتى يصبح كعنق الزُّجاجة وطوق النَّجاة الوحيد هو مرور أيِّ شخصٍ أحتمي بظلِّه، وأُسرع الخُطى حتى أستطيع اللِّحاق بالمدرسة قبل أن يدقَّ الجرس.

يمرُّ يومي بكلِّ ما فيه من فرحٍ وحزنٍ وبين حصص القراءة والحساب واللَّعب أثناء الفسحة، يمرُّ الوقت وتحين لحظة العودة للبيت لا أحمل لها همَّاً، فالشَّارع في ذلك الوقت يكون مكتظَّاً بالمارَّة.

يتكرَّر الأمر كلَّ صباحٍ من دون كللٍ أو مللٍ أو لحظة شجاعةٍ منِّي.

وذات صباحٍ رأيتُ عمّي حُسَيْن يعبر الشَّارع بخطى متمهّلةٍ، ناديتُ عليه حتى أمشي في ظلِّه، نوعٌ من الحماية، نظر إليَّ ليجدَ وجهي مصفرَّاً لا تُوجد به نقطة دمٍ واحدةٍ، سألَني عن السَّبب أوضحتُ له أنَّ قلبي مُفعَمٌ بالرُّعب من ذلك الكلب دائمِ الوقوف في ذلك المكان، ابتسم وقال: اسمه رعدٌ، وهو كلبٌ مسكينٌ فقد أمَّه منذ أن كان عمره أياماً، جميع مَن في الشارع يضعون له الطَّعام فهو وفيٌّ يحمي الكلَّ دون استثناءٍ.

كلامه بثَّ في قلبي طمأنينةً عجيبةً؛ لأنّي أثق به، انتظرتُ اليوم التَّالي بفارغ الصَّبر وحان وقت نزولي من البيت، كان يقف كعادته لا يتحرَّك، وكأنَّه تمثالٌ من حجرٍ، امتلكتُ زمام أمري ولأوَّل مرَّةٍ مشيتُ بخطواتٍ متردّدةٍ حتى صرتُ في مواجهته، لكنّي عبرتُ كأنّي أصنع فرحتي، ودقَّتِ الطُّبول بقلبي وانقشع الكابوس من أعماقي.

مضَتِ الأيَّام هكذا، أعبر من أمامه أو يمشي بجواري حتَّى أصلَ لأوَّل الطَّريق ثمَّ يعود، اعتدتُ عليه كما كان هو معتاداً على وجودي من الأصل.

جاء اليوم الذي زارَتْني فيه حمَّى شديدةٌ جعلَتْني طريحة الفراش أسبوعاً كاملاً لا أذهب إلى المدرسة، وفي أوَّل يومٍ بعد زوال المرض عندما رآني أسرع باتِّجاهي وظلَّ يقفز ويدور حولي، أصبحَ صديقي، وإن كنتُ لَمْ ألمسْه مرَّةً، أحببتُه من أعماق قلبي؛ فقد كان لديه من الذَّكاء ما يجعله عندما يمشي بجواري يترك مسافة خطِّ الأمان بيني وبينه، وعلى رأس الشَّارع هممْتُ بوداعه ولكنِّي وجدتُ في الطَّرف الآخر السِّمَّاويَّ يقف يصوِّب بندقيَّته نحو رعدٍ.

صرختُ عليه بكلِّ قوَّةٍ، وركضتُ نحوه كي أخبره أنَّه كلبي وليس مسعوراً أو يهدِّد أمان أحدٍ، لكنَّ الرَّصاصة كانَتْ أسرع، اخترقَتْ جسده ليسقط على الأرض، وسقطتُ أبكي بجواره أرى دموعَه، وأسمع أنَّاتِه للحظاتٍ ثمَّ صمتَ وأغمضَ عينيه.

تنفي روحي رحيله، وقلبي النَّائح يذرف الدَّمَ بدلاً من الدُّموع، إنَّها مصائر غريبةٌ تجعله صديقي ثمَّ يرحل فجأةً، أيُّ قلبٍ يمتلكه ذلك الرَّجُلُ الملقَّب بالسِّمَّاويِّ؛ ليقتل بدمٍ باردٍ ثمَّ يرحل، ويترك ضحيَّته تصارع الموت حتَّى تلفظ آخر أنفاسها.

* * *

خطوطٌ تتحدَّى الموتَ

نهارٌ جديدٌ من أغسطس، الجو حارٌّ خانقٌ، يصعب فيه التنفُّس، فتح حُسين عينه بعد أن غاب عن الوعي لمدَّة سبعة أيَّامٍ إثر إصابته بنزلة بردٍ أعقبَتْها حُمَّى كادَتْ تعصف بالجسد النَّحيل، الكلُّ كان يُبكيه؛ فهو أخٌ وحيدٌ جاء بعد ثلاث بناتٍ، وضعَتْه الجدَّة أمامها تملأ قطعةً من القماش بالثَّلج وتضعها على رأسه الذي تحوَّل بفعل الحرارة إلى بركانٍ يغلي بشدَّةٍ، وكأنَّه على وشك الانفجار، تنظر له أمُّه والحسرة تعصر قلبها في حين يجلس أبوه يرتّل القرآن ويدعو الله أن يُجيرَه في مُصابه.

وحدثَتِ المعجزة، أفاق، طلب الماء والطعام، وإن كانَتْ علامات المرض ما زالَتْ تبدو واضحةً جليَّةً على ملامحه، أصبح جسده أنحف من ذي قبل، ولكنَّ رأسه ما زال مستديراً كما هو أكبر من حجم جسده، وحسين ابن خمسة أعوامٍ ونصفٍ، كان ذكيَّاً فطناً، لم يكن بالطِّفل الوسيم أبداً، بل كانَتْ ملامحه جامدةً، كان سريع البديهة، ولديه حكمةٌ في الكلام كانَتْ تجذب كلَّ القلوب إليه، فهو أشْهَر طفلٍ في

الحارة، أمسكَتْه جدَّته من ذراعيه، وقالَتْ لقد دعوتُ الله كثيراً يا أعزَّ الولد، وإنَّه لنذرٌ عليَّ، لن أمنعكَ من اللَّعب مع أصدقائكَ في الحارة ما دُمْتُ حيَّةً، أيَّامٌ قليلةٌ من النقاهة.

استردَّ عافيته، عاد لجداله وعراكه مع أخواته، وعندما يتعب يذهب ويُلقي بنفسه في حضن جدَّته التي تستفيض في حكايات الغولة والشابِّ الهمام والشَّاطر حسن، لا يملُّ أبداً منها، بل يطلب المزيد حتى يقهره النَّوم ويذهب في سُباتٍ عميقٍ.

عَلا الصِّياح أسفل البيت، انتفض حسين واقفاً، وركضَ وصعد على الكنبة الملاصقة للشُّبَّاك، نظر منه وجد كتيبةً من الأصدقاء تصطفُّ بالأسفل، أشار اليهم فتهلَّلوا كمَنْ يرى هلال الشَّهر الكريم، ثوانٍ معدودةٌ كان يقف وقد بدَّل ملابسه بشورت قصيرٍ وقميصٍ أحمر، ثمَّ انبطح أسفل الكنبة، ومدَّ يدَه وبدأ يتحسَّس شيئاً إلى أن وقعَتْ يده عليه، ابتسم وجذبَه وهمَّ واقفاً.

كيسٌ كبيرٌ امتلأ عن آخره بالبِلي تلك البلُّورات الزُّجاجيَّة المُلوَّنة التي أسرَتْه، كان القائد في تلك اللُّعبة، تقدَّم من باب البيت الذي وجده مسدوداً بوقوف أمِّه التي أقسمَتْ له أنَّه لن يغادر، قالَتْ له: ما زلْتَ

مريضاً، لن أخاطرَ بنزولِكَ ولعبكَ مع الأطفال، وقد تهاجمُكَ الحُمَّى مرَّةً أخرى، التفَتْ إلى جدَّته، ونظر لها بعيونه الدَّقيقة ولسان حاله يعاتبها: أين وعدكِ لي؟

إنَّه نذرٌ، أشارَت الجدَّة إلى الأمِّ أن تبتعد، وقالت: لن يذهب بعيداً، سوف يلعب أسفل البيت، فتح الباب وقد بزغ له جناحان، لم يكن ينزل درجات السُّلَّم بل يطير، استقبله الشَّارع كلُّه كالقائد الذي غاب عن جنوده؛ فهو قادرٌ على خَلق جوٍّ من البهجة والفرحة ممَّا يجعل أصحاب المحلَّات يصطفُّون لتشجيعه.

ناوله أحد الأطفال قطعةً من الخشب، قام برسم خطوطٍ عميقةٍ على الأرض ودائرةٍ في المنتصف، ثمَّ وقفوا صفَّيْن، وبدأوا في اللَّعب، اكتظَّ الشارع الهادئ بالمارَّة، وبرغم المرض الذي ألمَّ به ولكنَّه لم يفقد قدرته على اللَّعب، وكسب كل الجولات، الفريق الذي يلعب معه بكلِّ تأكيدٍ رابحٌ، فهو لا يعرف الهزيمة، بعد وقتٍ ليس بقليلٍ ملَّ الأطفال من الخسارة ولكن في اليوم التَّالي يعودون، وكأنَّ شيئاً لم يكن.

انفضَّ الجمع وقرَّر حُسين أن يصعد، ولكنَّه لم يفعل، اقترب آذان المغرب فخرجَتْ أمُّه تنادي عليه ولكنَّه لم يردَّ كعادته، زاد النِّداء ولكنَّه

لا يجيب، وإذا بها ترى رجلاً يهرول من آخر الشَّارع يحمله بين ذراعَيْه، تجمَّع النَّاس حوله ونزلَتِ الأمُّ تجري ظنَّاً منها أنَّه فقدَ الوعي، وصلَتْ إليه وكأنَّ الأرض انشقَّتْ ليظهر جمعٌ غفيرٌ، الكلُّ يبكي، قال الرَّجل بأنفاسٍ متلاحقةٍ: سقط كِيس البِلي في النِّيل فمدَّ يده؛ ليلتقطَه لكنَّه سقط، أسرع بعض الصَّيادين لإنقاذه ولكن أمر الله نفذ، عجزَتِ الألسن عن الكلام.

غُسِّل وكُفِّن وحمله أبوه على يديه ليُودِعَه قبراً مُظلماً، ولتمُتْ ضحكته وذكاؤه، ولتمُتِ البلُّورات الزُّجاجيَّة السَّاحرة غرقاً في النيل، وفي الصَّباح كانَتِ الخطوط التي رسمَها حُسَيْن على الأرض ما زالَتْ واضحةً، وكأنَّ أقدام المُشيِّعين لم تطأْها.

* * *

فراشاتٌ حائرةٌ

جلستُ في غرفتي أطالع الجدران من حولي، يكاد الملل يقتلني، توجَّهتُ للمكتبة لعلِّي أَجِد فيها ما يبعد عنِّي شبح ذلك الملل، اخترت روايةً لم يكن يعنيني اسمها أو كاتبها، استغرقتُ في القراءة، وعشتُ مع أبطالها، وتناسيتُ ما أشعر به من وحدةٍ.

كان الهدوء يسود المكان حتى سمعتُ صوتاً غريباً، التفتُّ أبحث عن مصدره، وقعَتْ عيني على النجفة المعلَّقة في سقف الغرفة، وجدت بداخل كأس النجفة فراشةً تحلِّق محاولةً الخروج من ذلك الفخِّ الذي وقعَتْ فيه ولكن دون جدوى، أخذتُ أتابعها باهتمامٍ، ظلَّتْ ممدَّدةً دون حركةٍ في قاع الكأس فترةً طويلةً، وفجأة أطلقَتِ العنان لجناحيها تريد الارتفاع رغم ضعفها الشَّديد، بالفعل وصلَتْ هذه المرة إلى الحافَّة، ولكن أصابها الفتور وتهاوَتْ؛ لتعود للقاع مرَّةً أخرى، نظرتُ للرواية وجدتُ حروفها قد تلاشَتْ تماماً فأغمضتُ عيني وسرحتُ بعقلي بعيداً.

دائماً كنتُ أشعر أنّي مختلفةٌ عن كلّ بنات عائلتي وذلك ليس لأنّي متفوّقةٌ في دراستي حتى أصبحتُ طبيبةً في مستشفى حكوميّ، لكن لأنّي تجاوزتُ عامي التَّاسع والعشرين ولم أَجِد نصفي الآخر الذي يُكملني فأصبحتُ في عين أمّي وباقي أقاربي عانساً، وامتنعتُ منذ فترةٍ طويلةٍ عن الزّيارات العائليَّة التي أكون فيها محطَّ أنظار الجميع.

يردّدون على مسامعي كلمات الشفقة على حالي، وأنَّ كلَّ ما تعانيه أمي من أمراضٍ بسبب عدم زواجي، وكأنّي أصبحتُ مشكلةً في حياة الجميع، أمَّا يوم الجمعة كان بالنسبة لي كارثةً عظمى حيث تجتمع أمّي بصديقاتها، وكلُّ واحدةٍ منهنَّ تأتي وفي حقيبتها عريسٌ تعتبره فرصة العمر، منهم المُطلّق، والأرمل، وينظرْن لي وعيونهنَّ تقول: لا تأملي في أفضل من ذلك، حتَّى جاء اليوم الذي زارنا خالي طارق، ولأنَّه قريبٌ مني في العمر كان الأقرب لقلبي وعقلي، وفاجأني عندما قال: إنَّه اليوم جاءني بعريسٍ لُقطَةٍ لا يمكن أن أرفضه.

وبدأ يمدح فيه وفي أخلاقه وأنَّه تاجر أخشابٍ وأنّي سوف أعيش معه سعيدةً، كانَتِ الفرحة تغمر وجه أمّي، ومَن يرَها يظنَّ أنَّه سوف يبزغ لها جناحان تطير بهما من فرط السَّعادة، وعندما سألْتُه عن عمره ومؤهله الدراسيّ تلقَّيْتُ من أمّي نظرةً قاتلةً، وكأنَّها تقول لي: اصمتي،

وقال طارق: العريس اسمه ماهر وهو فوق الأربعين بقليلٍ ولم يتزوَّج حتى الآن؛ لأنَّه كان مشغولاً بالعمل، وبالنسبة للتَّعليم لم يحصل إلَّا على الشهادة الإعداديَّة فقط، ولكنَّه رجلٌ واعٍ يفهم كلَّ شيءٍ، كما أنَّه ثريٌّ تحلم به أيُّ فتاةٍ، ويستطيع الزَّواج من فتاةٍ صغيرةٍ، ولكنَّه يحتاج إلى فتاةٍ ناضجةٍ، بدأَتْ علامات الاستياء على وجهي من واقع كلماته، فكنتُ أظنُّ أنَّه آخر إنسانٍ يمكن أن يقول لي ذلك، ظهر الإحراج على وجهه، والتفَتَ إلى أمِّي واتَّفق على أن يزورنا يوم الخميس بصحبة العريس، دخلتُ غرفتي وأنا شاردةٌ.

أهذا حلمٌ أم أنَّه واقعٌ يجب عليَّ أن أتقبَّله، وجاء اليوم الموعود سريعاً خرجتُ لأجدَ شابَّاً وسيماً لا يدلُّ مظهره على أنَّه أربعينيٌّ جلسْنا وتكلَّمْنا عن عمله، وسألَني عن عملي، وهل أنا سعيدةٌ به؟

ومرَّ الوقت وانصرف ماهر، وظلَّ خالي ليعرف رأيي، كانَتْ نظرات الرَّجاء في عين أمِّي تذبحني وتجبرني على الموافقة، وكان لها ما أرادَتْ، خضعتُ لرغبتها، قلبي يرفض وعقلي يصرُّ أن يقبل من أجلها، وتمَّت الخطوبة سريعاً، وبعدها بشهرٍ ونصفٍ تمَّ الزَّواج، وانتقلتُ إلى بيت ماهر، كان رقيقاً كالنَّسيم يحاول أن يرضيني بشتَّى السُّبل.

شعرتُ بالسَّعادة معه، وأنَّ الدُّنيا أخيراً بدأَتْ ترضى عنِّي، وفتحَتْ لي أبوابها كي أعيش حياةً هادئةً بالقرب منه، ولكن دائماً تأتي الرِّياح بما لا تشتهي السُّفن، فلم يكذب طارقٌ في كلمةٍ واحدةٍ عنه، ولكنَّه كان يراه من الخارج، فقد انقضى شهر العسل بكلِّ ما فيه من حبٍّ مُعلناً أنَّه لن يعود، واصطدم كلانا بأفكار الآخر.

هو لا يهمُّه شيءٌ في الحياة إلَّا جمع المال والجلوس على الكافيهات مع أصدقائه وحضور المهرجانات، كلُّ ذلك إضافةٌ إلى العروس الجديدة التي صارت كدلاية مفاتيحه يتباهى بي أمام الأقارب غير مكترثٍ بمستغرب وأنا ما بين كتبي وأوراقي التي يعتبرها تفاهاتٍ، لم نتَّفقْ على شيءٍ واحدٍ، وشعرتُ أنِّي مَن ألقَتْ بنفسها في ذلك السِّجن، استمرَّت الحياة ولم أستطع أن أصارح أمِّي بما أعانيه من سوء معاملةٍ، فكان قديراً على تقمُّص دور سي السيد لطمس معالم شخصيَّتي.

رنَّ الهاتف، رفعتُ السمَّاعة لأجد أمِّي تسأل عنِّي، وعَن أخبار ماهر، ثمَّ قالَتْ:

إنَّ الكلَّ يحسدني علي زواجي الذى تأخَّر كثيراً، ولكنَّه أسفرَ عن رجلٍ تحلم به كلُّ البنات، لم أتكلَّمْ، ثمَّ قلتُ: ماما، أنا أريد الطَّلاق، شهقَتْ

ووضعَتِ السَّمَّاعة، وقبل أن تمرَّ نصف ساعةٍ كانَتْ تقف أمامي؛ لتصرخ في وجهي، وتقول: أنتِ لا تستحقِّين النِّعمة، هل تريدين فضيحتَنا؟

لم تحدثْ في عائلتنا حالة طلاقٍ واحدةٌ، أخذَتْ تتحدَّث وأنا شاردةٌ، كنت لا أسمع أيَّ كلمةٍ من كلامها، ولم تغادر إلَّا عندما أقنعَتْني ألَّا أتحدَّث في هذا حتى مع نفسي، حاولت أن أتعايش مع واقعي الجديد، بدأتُ أستجيبُ لكلِّ أوامره، فلا أعصي له أمراً حتى تسير مركب الحياة بِنَا دون عواصف، ولكن فاق الأمر قدرتي على الاحتمال عندما تعرَّف ماهر إلى أصدقاء جُددٍ، فكان يمضي اللَّيل كلَّه خارج البيت، بل وصل الأمر أن يغيب بالأيَّام، وعندما واجهتُه بما يقول الناس عن أصدقائه أخذ يصيح ويقول:

أنا رجلٌ أفعل ما يحلو لي، اسمعي يا سلوى، أنا هكذا، وسأظلُّ، أعجبَكِ هذا أو لم يعجبكِ، ثمَّ ينصرف عنِّي، فتحتُ عيني وانتهتُ لذلك الصَّوت مرَّةً أخرى، لحظاتٌ من التَّحليق يتبعها سكونٌ مميتٌ، أصابني التَّوتُّر، وأسرعتُ إلى المطبخ، وحملتُ السُّلَّم، ووضعتُه أسفل النَّجفة، وصعدتُ بسرعةٍ، حاولتُ التقاط الفراشة بهدوءٍ؛ لأنِّي أعلم مدى رقَّتها، ولكن للأسف كان وصولي لها متأخِّراً، فلقد ماتَتْ.

شعرتُ بخدرٍ يسري بأوصالي، والدنيا بأكملها تدور بي، فتهاويتُ من فوق السُّلَّم وارتطمتُ بالأرض، وتألَّمتُ بل صرختُ بكلِّ قوَّتي؛ ليدخل منزعجاً ويقول ماذا حدث؟

وما الذي جعلك تصعدين على السُّلَّم؟

قلتُ بصوتٍ متألِّمٍ: الفراشة كانَتْ بداخل الكأس، حملَني ووضعني على السَّرير، ولم يهتمَّ بآلامي، ولكن أخذ يعنِّفني ويلعن عقلي الصَّغير الذي لا يهتمُّ إلَّا بما هو تافهٌ، ثمَّ أشاح بوجهه عني وخرج مسرعاً كما دخل، وكلماته تتردَّد في أذني.

تلك الفراشة الغبيَّة هي مَن ألقَتْ بنفسها في الأَسْرِ، تساقطَتْ دموعي وكأنَّها زخَّاتٌ من المطر، وأخذتُ أحدث نفسي.

كنتُ دائماً أشعر وأنا معه أنِّي ريشةٌ من جناح يمامةٍ كسيرٍ يحرِّكها بأنامله ذات اليمين مرَّةً، وذات اليسار مرَّةً أخرى، يُلقي بي في كل الاتِّجاهات دون أدنى مقاومةٍ منِّي حتى يصيبه المَلل، فينصرف عنِّي تاركاً إيَّاي.

مجرد ريشةٍ في مهبِّ الريح واليوم سوف أطوي آخر صفحةٍ في كتاب حيِّي له، وأمضي تاركةً خلفي كلَّ أحزاني وقصصي الموحشة التي طالما آلمَتْني لشهورٍ قصيرةٍ متَّخذةً أولى خطواتي نحو عالم الحرية والبحث عن ابتسامتي الضَّائعة وأتخلَّص من الأحزان التي أصابَتْني منذ البداية، وحتى الآن نَعَمْ.

لم يعُد يعنيني كلام أمِّي أو كلام ذلك المجتمع الذي ما زال ينظر للمرأة على أنَّها من ضلع آدم الأعوج، لا تكتمل إلَّا بوجوده، خرجتُ من البيت ونظرتُ للشَّمس المُشرقة وكلِّي سعادةٌ وأنا في حياةٍ أفضل دون وجود رجلٍ بحياتي.

* * *

ذكرياتٌ مُهمَلةٌ

اشتدَّتِ الرِّياح وهبَّتْ من جهاتٍ مختلفةٍ، ولم أعرف لها اتجاهاً، حاولتُ أن أحتمي ببعض الجدران ولكنَّها كانَتْ أقوى مني، ظلَّتْ تدفعني في الشارع الذي يكاد يكون خالياً من المارَّة، وبعد عناءٍ شديدٍ وصلتُ إلى باب البيت، صعدتُ السُّلَّم، ودقَّات قلبي تسبقني، طرقاتٌ متتاليةٌ على الباب، وبعد صمتٍ وجيزٍ سمعتُ صوت أمِّي يصدح من بعيدٍ يعلن أنَّها آتيةٌ، دلفتُ من الباب ووقفتُ في منتصف الصَّالة أزيل التُّراب العالق في ملابسي، وهذا أمرٌ سهلٌ، لكن ماذا أفعل في ذلك الذي اخترق رئتي؟

سمعتُ أمِّي تقول: كيف كان يومكِ؟، قُلت: عاصفاً محمَّلاً بالأتربة، ضحكَت وخرجَتْ من غرفتها وهي تقول: أقصد الامتحان، اتَّسعَت ابتسامتي وقُلتُ مرةً أخرى، كان عاصفاً محمَّلاً بالأتربة، ضحكْنا ثم توجَّهتُ إلى غرفة جدَّتي، ألقيتُ عليها التَّحيَّة، وظللْتُ أثرثر وأحكي لها عن يومي، وكيف أخلف الدُّكتور وعده وجاء بالامتحان بعيداً كلَّ البعد عن الجزء الذي حدَّده؟

ألصقتُ قُبلةً على جبينها وخرجتُ وأنا أتمنَّى أن أسمع صوتها لمرَّةٍ واحدةٍ منذ أن أدركتُ أنَّ لهذه الحياة معنى، وهي تجلس على كرسيٍّ متحركٍ لا تغادر غرفتها، حرمها المرض من الحركة والكلام، أصبحَتْ منعزلةً عن العالم الخارجيّ، تنظر لنا دون أن يبدو عليها أيُّ انفعالٍ في السَّنوات الأخيرة، تُخرجها أمّي لتجلس في الشُّرفة لتستمتع بإشاعة الشَّمس.

ترى العالم من داخل صندوقها المُغلق ثمَّ تعود إلى غرفتها مرَّةً أخرى، أتحدث معها طول الوقت، فهي الوحيدة التي أستطيع أن أبوح لها بكلِّ ما يدور في خلدي، في بعض الأحيان ألمح ذلك الكائن المحزون بداخل عينيها يريد أيضاً أن يبوح ويعبّر عمَّا بداخله، ولكنَّها لا تستطيع.

آهٍ يا جدَّتي، لو أستطيع أن أفكَّ شفرةً من التَّنهيدات الصَّغيرة التي تملأ صدركِ، أن أقتحم تلك العزلة التي فرضها عليكِ المرض، وأجعلكِ تثرثرين مثلي لتعويض كلِّ سنوات الصَّمت التي ضاعَتْ هباءً.

شغلَتْني فكرة أن أجعلها سعيدةً حتى وإن لم أستطع أن أرى تلك الابتسامة، حاولتُ أن أعرف أيَّ معلومةٍ من أمّي، فلقد أصابها المرض بعد أن وُلِدْتُ بثلاثة أعوامٍ، لذلك لا أذكر أيَّ شيءٍ عنها، ضحكتها،

صوتها، خطواتها، كلُّ تلك الأشياء تلاشَتْ من ذاكرتي، سبعة عشر عاماً من الصَّمت المُطبق الذي يقتل الرُّوح قبل أن يفتك بالجسد، كلُّ الكلام الذي سردَتْه أمّي لا يجدي نفعاً، ليس هذا ما أبحث عنه بل أبحث عن كلِّ الذكريات التي تسيِّر الأحاسيس والمشاعر، ولكن من أين تكون البداية؟، وعمَّ أبحث؟

ومضَتْ فكرةٌ في رأسي، غرفة جدَّتي بكلِّ تأكيدٍ سوف أجد شيئاً لتكون منه البداية .

وقفتُ أدور حول نفسي، أدقِّق النَّظر في كلِّ ما يُوجَد حولي، تقدَّمتُ من خزانة ملابسها، فتحتها لم أجد ما يثير الاهتمام، فقرَّرتُ أن أغلقها وابتعدتُ عن تلك الأفكار.

أزحْتُ الفساتين المعلَّقة حتَّى أستطيع قفل الخزانة مرةً أخرى، وقعَتْ عيني على شيءٍ أسفل الملابس، جلسْتُ لأتفحَّصه، علبتان من الصَّفيح، العلبة الأولى عليها ورودٌ رائعة الجمال، والثانية صورةٌ لطفلٍ يحمل بلونة باللَّون الأحمر ويجري، إنَّها علبٌ خاصَّةٌ بالحلوى، التَّاريخ المُدوَّن أسفل العلبة يقول:

إنَّهما يمتلكان عمراً ضعف عمري، حملْتُهما وجلسْتُ أمام جدَّتي على الأرض، فتحتُ العلبة الأولى، كانَتْ تحتوي على بعض الرَّسائل ودبوسين للشَّعْر على شكل وردةٍ، وضعتُها على راحة يدي وجعلتُها تنظر لها، ثمَّ وضعتها بجانبي، وقلتُ: حان الوقت كي نكشف عن الكنز الجميل الذي تحتويه العلبة الثَّانية.

فتحتُها ولكن المفاجأة كانَتْ أجمل قارورة عطرٍ، لم يتبَّقَ فيها إلَّا القليل، عطرٌ خاصٌّ بالرِّجال، لمعَتْ عيناها الجميلتان الفاترتان، نثرتُ بعضاً منه في الهواء.

أغمضَتْ عينها وسقطَتْ دمعةٌ كحبَّة اللؤلؤ، إنَّه ذلك العطر المنتمي للعالم الذي تعرفه، صُنع بيننا جسرٌ أستطيع أن أعبره وأصل إلى أعماق قلبها، التقطْتُ أوَّل خطابٍ قرأتُ التاريخ الحادي عشر من نوفمبر عام ١٩٤٩ زوجتي الحبيبة، أمَّا بعدُ.

* * *

لوروستي

عدتُ إلى وعي، جبهتي تتصبَّبُ عرقاً، الغرفة مظلمةٌ، لا أذكر أنِّي أطفأتُ المصابيح قبل أن أغفو، الجوُّ خانقٌ لا أستطيع التَّنفُّس كما أنِّي مصابٌ بفوبيا الظَّلام فهو يجعلني مشوشاً.

أحاول السَّيطرة على أعصابي وأنا أتلمَّس طريقي حتى وصلتُ إلى الجدار، مددتُ يدي، أشعلت النُّور، انتشر الضُّوء بقوَّةٍ في أرجاء الغرفة حتى وضعتُ يدي على وجهي كي أستطيع أن أرى، خطواتٌ متثاقلةٌ عدتُ بها وجلستُ على حافَّة السَّرير أعاني دواراً شديداً، لا أعلم الوقت فلا يُوجد في بيتي ساعةٌ واحدةٌ، كم أكرهها!

أكره عقاربها وأرقامها وثوانيها فهي تأخذ منَّا أجمل لحظات العمر، تمرُّ كالقطار الذي يأبى أن يقف لعدَّة ثوانٍ، أمسكتُ هاتفي المحمول حتى أتعرَّف على الوقت ولكن نفذ شحنه، اللَّعنة عليَّ وعلى ذاكرتي التي تقبع في عالم النِّسيان، لأوَّل مرَّةٍ أريد معرفة الوقت بشدَّةٍ تتجاذبني آلاف الأحاديث والخواطر، شردتُ قليلاً وفجأةً وجدتُها تقف أمامي ترمقني بطرف عينيها، سرَتِ الرَّجفة في أوصالي ولم أستطع الحركة،

اقتربَتْ منّي وقالَتْ: أبي، إنَّه لوروستى يبتسم لي، ركضَتْ وهي تضحك بصوتٍ مرتفعٍ للغاية، أدهشَتْني تلك المفاجأة من تلك الفتاة، كيف دخلَتْ عليَّ غرفة نومي؟!، بل كيف دخلَتِ الشَّقَّة؟!، ولماذا تناديني: أبي؟، فأنا لم أتزوَّج يوماً فكيف لي أن أنجب؟!

ومَن هو لوروستى؟

خطواتٌ مترِدّدةٌ حتى باب الغرفة، أدرتُ المِقبض وفتحتُ الباب وأنا أتلفَّت حولي، أين اختفَتْ؟

لكنّي سمعت أصوات أطفالٍ يلعبون في غرفة الطَّعام، أسرعتُ إليهم، اتَّسعَتْ حدقتا طفلين، الأوَّل في الثَّامنة من عمره، والثَّاني يبدو في الخامسة، قلتُ: مَن أنتما؟، كيف دخلتما بيتي؟، أخذتُ في الصِّياح حتى خرجَتِ امرأةٌ تمتلك الكثير من الجمال، نظرَتْ لي وقالَتْ: لماذا أنت دائم الصُّراخ؟!، كان صوتها رخيماً، انتابني الخوف والفزع، ستُّ عيونٍ تنظر لي.

ظهرَتِ الفتاة مرَّةً أخرى وهي تضحك، جرَّتْني من يدي وهي تشير إلى صورةٍ مرفوعةٍ على الجدار في غرفة الجلوس وقالت: انظر يا أبي، لوروستى يبتسم لي، لم أنطق ببنت شفةٍ في حين دخلَتِ المرأة وهي

مشمِرةٌ عن أكمامها، صراخها للفتاة يمزّق أعصابي، هدأَتْ ونظرَتْ لي: أنت المسؤول عن كلِّ ذلك، طفلتكَ منذ الأمس تتحدَّث إلى تلك الصُّورة الملعونة، سنواتٌ أعيشها معكَ لم تدخل يوماً تحمل كيساً بداخله خبزٌ، وفجأةً تعود ومعكَ لوحةٌ لشخصٍ سُلخ عنه نصف وجهه.

نظرتُ للفتاة وجدتُها صامتةً، لديها رغبةٌ في البكاء، خرجَتِ المرأة وهي تتمتم وكأنَّها تُلقي عليَّ لعناتٍ تفيض بها السَّماء والأرض، أطبق الصَّمت على روحي، مَن هؤلاء؟، لماذا لا أصرخ وأعلن أنِّي لا أعرفهم؟، لماذا لا أفتح الباب وألقيهم بالخارج؟!

بالأمس لم يكن أحدٌ غيري هنا، نَعَم، إنَّها تلك اللَّوحة، اشتريتُها من بائع الروبابيكا، لوحةٌ قديمةٌ تحمل ملامح لشابٍّ في منتصف العقد الثَّاني من عمره، لديه وسامةٌ طاغيةٌ، ملابسه تحمل نياشين ذهبيَّةً، وقبَّعته بلونين الأحمر والأزرق، قد يبدو أميراً أو نبيلاً من العصور الوسطى، حالة اللَّوحة جيِّدةٌ، والإطار أكثر من رائعٍ، ومع ذلك اشتريتها بثمنٍ بخسٍ.

وقفتُ وأنا أنظر للَّوحة، نفس الألوان، نفس كل شيءٍ كما هو، ولكنَّها الآن تحمل ملامح رجلٍ عجوزٍ مسلوخ الوجه، له نظرةٌ تسيِّر الرُّعب في

القلوب، لا أعلم هل هذه ابتسامةٌ أم علامة استياءٍ؟، كلُّ شيءٍ يحدث بسبب تلك اللَّوحة الملعونة، سوف ألقيها خارج منزلي، وعندها ستختفي المرأة والأطفال، سوف أتخلَّص من الاستعمار الذي ألحقْتُه بنفسي، حاولتُ رفعها بكلِّ قوَّةٍ، ولكنَّها كانَتْ ملتصقةً بالجدار بشدَّةٍ، وكأنَّها حُفرَتْ بداخله، كلَّما حاولتُ صرخَتِ الفتاة، وقالَتْ:

لوروستى، جلست على الأريكة، أنظر للرَّجل الذي بدأ في مبادلاتي النَّظرات، غارَتِ الابتسامة من صفحة وجهي، وأدركتُ أنَّهم يريدون منِّي أن أرحل، لا مجال للرَّحيل، إنَّه بيتي، اللَّعنة على اللَّوحة، تعالى صراخي حتى كاد أن يشقَّ كبد السَّماء، فقدتُ وعيي، وعندَما فتحتُ عينيَّ وجدتُه يقف أمامي يرتدي بالطو أبيض، ابتسم لي وقال: لقد جاءَتْ بكَ زوجتكَ وأنت فاقد الوعي، دقَّقتُ النَّظر، إنَّه هو، علَتْ نبرات الطَّبيب: أفقْ، لا وجود للوروستى، قلتُ:

لا، موجودٌ، المسلوخ عنه جلده موجودٌ، شعرتُ بوخزٍ في ذراعي ثمَّ أمسكَ بي وعبر إلى عالَم لوروستى.

* * *

زفافٌ أبيض وأسود

اختلف صباحي اليوم عن أيّ يومٍ مضى منذ عدَّة أيَّامٍ، وأمِّي تنظِّف البيت بالرَّغم من نظافته، ولكنَّها كانتْ تُغالي هذه المرَّة في كلِّ شيءٍ، فلقد وضعَتْ مفرش السُّفرة المطرَّز بالورد الجوريّ باللون الأحمر والأخضر، وهذا لا يحدث على الإطلاق إلَّا مرَّتين في السَّنة.

الأولى في عيد الفطر، والثَّانية في عيد الأضحى، حيث تكثر زيارة الأهل والأحباب، وقفتُ في ركن بعيدٍ أنظر لها، وهي تتحدَّث إلى زوجة عمي، وهي تقول:

إنَّ اليوم غير أيِّ يومٍ، إنَّه يوم السَّعد.

ناولتْ أمّي خالتي مفتاح البوفيه، التقطته منها وأسرعت خطوت وراء خالتي بتمهُّلٍ، كُنت أشعر بسعادةٍ غامرةٍ عندما تفتح أمّي درفة البوفيه التي تخبّئ فيها كل غالٍ وثمينٍ، فتحتْ خالتي الدرفه ببطءٍ وقامتْ بوضع فناجين من القهوة على صينية، وحملتْ تلك الفنجانين التي

رُسم عليهما شابٌ وفتاةٌ بملابس زاهية برّاقةٍ، أخبرتْني أمّي أنَّ الفتى اسمه روميو والفتاة جوليت.

انقضى اليوم سريعاً، وبعد آذان العصر أخرجتْ أمي من خزانة الملابس فستان العيد الخاصّ بي، كان مزركشاً بألوانٍ كثيرةٍ له حزام عند الوسط، ومن الأسفل كالوشة.

أمرتْني أمّى أن أرتديه، وبعدها قامتْ بتمشيط شعري كالمعتاد، ولكنَّها هذه المرَّة كانتْ أكثر حناناً.

لم تجذبْه بشدَّةٍ بل همستْ لي وقالت: عَلَيْكِ من الآن الاعتماد على نفسكِ، ليس في هذا فقط بل في كلِّ أمورِكِ، لقد صرتِ عروساً، فتحتْ علبة الحُمرة الخاصَّة بها، ووضعتْ على وجنتي ثمَّ صبغتْ شفتيَّ بأحمر الشِّفاه.

وأخيراً فتحتْ مكحلتها النُّحاسيَّة، ووضعت الكُحل بعينيَّ.

شعرتُ بألمٍ شديدٍ وأنَّ الدُّموع سوف تسقط منّي، نهرتْني أمّي، وقالت: إيَّاكِ والبكاء، سيُفسد كلَّ ما صنعتُ، امتثلتُ لأمرها، أعطتني قطعة المِرآة المكسورة، قرّبتها من وجهي، قالتْ:

انظري كيف صرتِ جميلةً، نظرتُ عدَّة مرَّاتٍ، كنت أشعر أنَّني أنظر لأخرى لا أعرفها، لا بل أعرفها، لقد أصبحتُ قريبة الشّبه من عروس المولد التي يهديها لي جدّي كلَّ عامٍ، مرَّتْ دقائق وأنا غارقة في النظر لنفسي .

دخلت خالتي وسحبتْني من يدي، وهي تُلقي بعض التعليمات، تسلّمين علي الجميع، وتجلسين، لا أريد أن أسمعكِ تنطقين ببنت شفةٍ مهما حدث، وبالفعل خرجتُ لأجد غرفة الجلوس مكتظَّةً بعددٍ كبيرٍ من النِّساء تهلَّلتْ وجوههنَّ.

سلَّمتُ علي الجميع في حين ضمَّتني أخرى طويلاً إلى صدرها، جلستُ لا أنظر لهنَّ، ولكنّي أشعر أنَّهنَّ يتفحَّصنَ تماماً كما أفعل بعروس المولد، دخلتْ أمّي تحمل صينيَّةً عليها فنجانا روميو وجوليت، أصبحت الغرفة تعجُّ بهَمْهمات النِّساء، وهنَّ يحتسين القهوة، فجأةً أطلقت زوجة عمّي الزَّغاريد، تبعتْها خالتي، لا أعلم ماذا يحدث؟

هل جُنَّت النِّساء؟

طبعتْ أمّي قبلةً علي جبيني وهي تقول:

مبارك لكِ، عروسى الصَّغير، انقضى الوقت، وانصرفَت النِّساء على وعدٍ بالعودة يوم الاثنين، انشغلتْ أمّي وخالتي في رفع آثار العدوان الذي خلَّفتْه النِّساء في غرفة الجلوس، وقفتُ حائرةً أسمعهنّ يتحدَّثن بسعادةٍ، سألتُ أمي:

عمَّ تتحدَّثن؟

قالت:

إنّه زوج المستقبل يا بُنيَّتي.

جاء يوم الاثنين نفس النساء ولكنّ السرور كان أكبر، فتحت إحداهنَّ علبةً كبيرةً أخرجَتْ منها عدداً من الغوايش ووضعتْها في يدي، وفي الأخري سوارٌ لثعبان رأس وذيل، وزيَّنت الزاتونية عنقي النَّحيل أربعين يوماً انقضوا في تجهيزات الزفاف، وجاء اليوم الموعود نزلتُ من بيت أبي بفستاني الأبيض.

أمسك بيد عريسي الذي أراه للمرة الأولى، طويل القامة ذو وجهٍ أسمر وعيونٍ عسليَّةٍ، له ابتسامةٌ جعلتْ قلبي يخفق من أول لحظةٍ، ومن حولنا المزيكا تعزف أجمل الألحان، وصلت إلى بيتي الجديد لأجد في انتظاري مفاجأةً أروع.

كان يقف في ركنٍ بعيدٍ يثبت قطعةً كبيرةً من القماش الأبيض على الجدار، أشار لنا بالوقوف واتَّجه ليقف خلف كاميرته، قال لزوجي:

ضع يدكَ على كتفها، وأنا مُمسكةٌ بباقة الورد، نظرنا في اتجاه يده، سألنا أن نبتسم، واحد اتنين تلاتة تك تك تك.

سمعت صوت الكاميرا لأوّل مرّةٍ بحياتي، وصلت لقمّة الفرح، مرَّت أيامٌ ونفسي تشتاق لتلك الصورة وذات مساءٍ عاد زوجي يحمل إطاراً خشبيًّاً بداخله صورتنا بالأبيض والأسود.

* * *

حدث في مدن الضَّباب

أتذكّر كلمات أبي على الدوام، إنَّ العادات اليوميَّة هي التي تصنع الحياة منذ أن كان عمري عشرة أعوامٍ، لم أخلف يوماً عادة المشي الصَّباحيَّة، فهي تجعلني أكثر صفاءً واستيعاباً لِما يحدث حولي.

أمشي الطَّريق الممهَّد من بيتي إلى شاطئ البحر، أجلس على رماله النَّديَّة بضع دقائق، ثم أقف استعداداً لرحلة العودة التي لا تتجاوز نصف ساعةٍ، في الأيَّام الأخيرة كنت أشرُد بذهني عن أيّ شيءٍ حولي، أخرج من البيت أَجِد نفسي أمام البحر كيف عبرتُ الطَّريق؟

مَنْ قابلت؟، لا أعلم.

كان هاجسى الوحيد هو انقطاع حروفي وكلماتي عنِّي، لا أَجِد حرفاً واحداً كي أخطَّه في كتابي، الكلُّ يسأل:

إلى أين وصلتَ؟.

أبتسم وأقول:

إلى قَدْرٍ لا بأس به ولا أحد يعلم ما أعانيه، الصَّمت يلفُّ الكون مِن حولي، ويجعلني منعزلاً عن باقي العالم، يتلاشى الوهم من رأسي، أحدِّث عقلي وأقول له:

إنَّها فترةٌ وجيزةٌ، بعدها سينطلق قلمي كالجواد الجامح، أتمسَّك بساعتي اليوميَّة في المشي وحيداً، لعلَّ أفكاري تلهمني وتُبعد عنّي شبح الكآبة الرَّابط في أركان روحي.

ليلٌ بلا نحومٍ، قاتمٌ، أتأمَّل السَّماء وأمسكُ في يدي قلماً، وأمامي ورقةٌ بيضاء، أخيراً وحدي معك، يشرق وجهي وأتخلَّى عن ذلك التعيس الذي يريد الموت في صمتٍ، لست أنا ذلك العابر.

أليس مؤسفاً أن أتحوَّل من طاقةٍ تشعُّ الأمل إلى كائنٍ محزونٍ، كلُّ لحظةٍ تمرُّ تلتهم من قلبي الأمل، حتَّى عادة المشي والتأمُّل أصبحتْ غير مُجديةٍ بالمرَّة، العُزلة أفضل لي من فوضة المدن العارمة، الظَّلام يواري ضحكتي المُبلَّلة بالدُّموع التي لا يراها أحدٌ غيري.

الألَم الذي يلتهم الحياة أصبح بارداً كالموت، وذات مساءٍ وأنا أنظر للسَّماء نظرةً عابرةً تذكَّرت القمر المسحور والشُّموع التي تتوهَّج في وضح النهار والتَّناغم بالغ الرّهافة بين كلِّ تلك الأشياء قلمي يتلوَّن

تحت السَّماء السوداء، انقضى الليل كلُّه وأنا ما زلتُ أجلس مكاني، أحلامي المتزاحمة دفعتْني للخروج والمشي في طريقي الممهّد الذي أحفظه ككفِّ يدي، أفكِّر في المعجزة الرَّهيبة التي قد تحدث في أيِّ لحظةٍ، استفقْتُ لأجد نفسي غارقاً في بحرٍ من الضَّباب.

ضبابٌ كثيفٌ يلفُّ الكون، لا أستطيع أن أحدِّد أيّ اتّجاه يجب أن أمشي، أدور حول نفسي لا أعلم كم انقضى من الوقت؟.

وفجأةً بدأت أشعر بأشعَّة الشَّمس المتساقطة من سماءٍ غائمةٍ، انقشع الضَّباب بالكامل ولكن يبدو لي أنِّي انحرفتُ عن الطَّريق الرَّئيسيَّ، ما هذا المكان؟

لقد ولدتُ وعشتُ عمري كلَّه بتلك المدينة لم أرَ مثل تلك الغابة من قبل، دفعني الفضول لمواصلة الطريق واكتشاف المكان، وجدت منزلاً صغيراً مصنوعاً من الأخشاب يتصاعد منه دخانٌ من خلال المِدْخنة، يبدو أنَّهم يصنعون طعام الإفطار.

اقتربتُ أكثر، لمحْتُ رجلاً كهلاً يقف ويقلّم الأشجار حول البيت، أشرتُ اليه، اقترب ونظر لي بتمعُّنٍ، قال:

أهلاً بالزَّائر الكريم، لقد مرَّت عدة أعوامٍ لم نرَ فيها أحداً، سألتُ: أين نحن؟ وطلبتُ منه أن يدلَّني على طريق العودة، دعاني للدخول.

دخلت البيت رغم بساطة الأشياء إلَّا أنَّه مرتَّبٌ نظيفٌ، جلستُ أمامه وبيننا خوانٌ فارغٌ، شعرتُ بالتَّوتُّر فيما يبدو عليه الهدوء، قال بصوت فاترٍ: أنت خارج حدود مكانكَ وزمانكَ، أنت الآن في عالم موازٍ، ضحكتُ وقلتُ أتحسبني مجنوناً؟

تلك الخُرافات يطلقها البعض وهي صالحةٌ لأفلام الخيال العلميّ، أصرَّ على صدق كلامه مِمَّا جعل عقلي محموماً مشوَّشاً، قال:

نحن عَلى أطراف مدن الضَّباب، وأنت هنا ضيفي لمدَّة عامٍ، لن تستطيع العودة إلَّا عندما يأتي الضَّباب في نفس البقعة، قلتُ: عام؟

سوف أضيع من ذاكرة النَّاس، شعرتُ بالحزن و الكآبة، مرَّتْ عدَّة أيَّامٍ وأنا على حالي إلى أن استسلمتُ للأمر الواقع، وعندَما علِم الرَّجل بأنّي كاتبٌ أحضر لي أوراقاً غريبة الشَّكل وأحباراً وريشةً.

أمشي وسط الناس فلا يشعرني أحدٌ أنّي غريبٌ، ويتبادلون معي الابتسامة، أدوّن كلَّ ما أراه وأكتب روايتي الجديدة، كلَّما كتبتُ سطراً

شعرتُ بالأمل يملأ قلبي، والشَّوق يطير بي إلى عالَمي حتى يعرف الكلُّ عن تلك المدينة، انقضى العام، ودَّعتُ صديقي وزوجته، حملتُ أوراق كتابي في كيسٍ من القماش، وانتظرتُ طويلاً إلى أن حلَّ الضَّباب وأصبحتُ تائهاً مرَّةً أخرى، شعرتُ بأشعَّة الشَّمس المُتساقطة من سماءٍ غائمةٍ، انقشع الضَّباب ووجدتُ طريقي، ركضتُ بكلِّ قوَّتي.

وصلتُ إلى بيتي، وجدتُ زوجتي أمامي، ضممتُها إلى صدري، وقصصتُ لها ما حدث لي، علَتِ الابتسامة وجهها وقالت: كم أنت كاتبٌ ماهرٌ، لقد أقنعْتَني بأنَّكَ غائبٌ منذ عامٍ، تجهَّم وجهي وقلتُ: هذا ما حدث بالفعل، ضحكَتْ:

نَعَمْ، لقد تأخَّرتَ اليوم، ولكن لثلاث ساعاتٍ فقط، علَتِ الدَّهشة وجهي، وأنا أردِّد: ثلاث ساعاتٍ، كيف؟

وذلك العام وتلك المدن؟، شعرتُ بدوارٍ شديدٍ، نظرتُ إلى أوراقي وقلتُ: لا يهمُّ أن تصدِّقي ما حدث، الأهمُّ أنَّ الكلَّ سوف يعرف عن مدن الضَّباب، حتَّى وإن ظنُّوا أنَّه خيال كاتبٍ.

* * *

شظايا الرُّوح

قد نتحدَّث عن الجروح الغائرة بداخل أرواحنا، وكأنَّها مجرَّد خدوشٍ تترك علاماتٍ لبعض الوقت ثم تختفي وكأنَّها لم تكن موجودةً يوماً، هذا هو الجانب المُشرق فينا، ولكنَّ الحقيقة عكس ذلك، تلك الجروح لا تمضي إلَّا بعد أن نتأكَّد من أنَّ الروح قد غادرَتْ، تترك الجسد وترحل، فنكون بين الناس أحياء ولكن نحن أمواتٌ، رحل سَندي في الحياة بعد أن تشاركنا لمدَّة ثلاثين عاماً.

أنجبتُ الولد والبنت واحتفلنا بالأحفاد، كان الأنس في ليالي الشِّتاء الطَّويلة، والضِّحكة التي يحلو معها السَّمر في ليالي الصَّيف، انقضَت الأيَّام الثَّلاثة الأولى لرحيله، وكأنَّها بضع ساعاتٍ لا أكثر.

ما زلتُ أظنُّ أنّي نائمةٌ، وعليَّ أن أستيقظ أعدُّ طعام الإفطار، ويقوم هو بصنع الشَّاي.

اليوم أسمع بضع كلماتٍ من ابنتي تقولها وهي تحمل حقائبها وتجرُّ أبناءها الأربعة تطلق الوعود بالزيارة كلَّما استطاعَتْ، مسكينةٌ هي ابنتي؛ فحِمْلها ثقيلٌ، تحلم بالعزوة، ولكنَّها أرهقَتْ نفسَها، ابني اكتفى

بكلمتين، ورحل مسرعاً، انفضَّ الجمع، أغلقتُ الباب لأجد البيت خاوياً على عروشه، مكالمات الأبناء أصبحَتْ شحيحةً، وكأنَّهم ظنُّوا أنَّهم أودعوني القبر مع أبيهم، فلم يذكروا أنّي ما زلتُ أحيا، أنظر للتَّقويم السَّنويّ، أتذكَّر التواريخ المشؤومة، أصبحَتِ السَّماء رماديَّةً شاسعةً وكأنَّها تأبى أن تستعيد زُرقتَها، أغرق في أحلام اليقظة، الحزن يطبق على روحي، أشعر بها تتصاعد إلى عنان السماء، ترهقني أفكاري فوق الحدود؛ فطموحي الخائب في فلذات أكبادي فاق التَّصوُّر، المبرّرات مُعدَّة للتَّملُّص من الزِّيارة أو حتى رؤية الأحفاد، حتى زيارتي لهم كانَتْ تخلو من التَّرحيب أو الدِّفء الذي أحتاجه.

خيَّم الاكتئاب على روحي، ورفض المغادرة بدون صحبتها، بتُّ أعاني انحراف المزاج والبكاء، لم يعد هناك أمَلٌ في أن يشعر أحدٌ بي وكأنّي صفحةٌ قد طُويَتْ من كتاب الماضي البعيد، وجدتُ متعتي في التَّجوُّل بين شوارع المدينة صباحاً حيث يقبع الهدوء وتغرق المرارة التي تسكنني، نسماتٌ عليلةٌ، لا شيء يثير الدَّهشة في تلك الشَّوارع، كلُّ ما فيها مألوفٌ، البيوت تصطفُّ في تناغمٍ عجيبٍ.

هُدمَتْ بعض الفيلات، وعلَتْ بعض الأبراج، لا شيء يهمُّ، فلقد أصبحتُ كتلك الأضواء التَّائهة على الطَّريق أقضي معظم الوقت في

التَّجوُّل، أسير مسافاتٍ طويلةً، ذات يومٍ شعرْتُ بألَمٍ شديدٍ في ساقي، جلستُ بقرب سُوَرٍ عالٍ لقيلا جميلةٍ، رأيتُ الحديقة مكتظَّةً بالأطفال يلعبون ويمرحون، اقتربتُ من الباب ووقفتُ أنظر إليهم، تكرَّر المشهد لعدَّة أيَّامٍ حتَّى خرجَتْ لي سيِّدةٌ في أوائل العقد الخامس، ألقَتْ عليَّ السَّلام، ودعَتْني كي أدخل، استجبتُ لدعوتها، تجاذبنا أطراف الحديث، سمعَتْ قصَّتي كاملةً.

أمَّا هي فتعمل مديرةً لدار الأيتام، وأمٌّ لكلِّ الأطفال، مرَّ الوقت سريعاً، وجاءَتْ لحظة انصرافي، وفي طريق خروجي قابلتُ بعض الأطفال، قبَّلْتُهم ورأيتُ ابتسامتهم، قد أشبعوا روحي، وفي صباح اليوم التَّالي عُدتُ وصرْتُ أعود كلَّ صباحٍ ومساءٍ، أصبحتُ جزءاً منهم، وأصبحوا هم كلِّي، عبرتُ جسر الماضي، أغدقتُ الحبَّ والحنان على أطفالي في حين أمطروني بكلِّ وسائل السَّعادة التي جعلَتْني أحيا من جديدٍ.

* * *

تعريف الكاتبة

- هبه عادل السويسي

- تخرجت من كلية الإعلام جامعة القاهرة

- صدر لها ديوان بالمختصر المفيد عام ٢٠١٦

- تعمل مصور فوتوغرافي

الفهرس

أجراسُ الرَّحيلِ...5

قهوة تركي...8

غية حمام...11

الشَّالُ الأحمرُ 13

المُدلَّلة...16

ذنوبُ عاشقةٍ...19

تخاريفُ قبلَ مُنتصفِ اللَّيل...21

كعب كوباية...25

طبولُ الحبِّ...30

أمواتي الأعزَّاء 34

طرحُ البحرِ 37

ومضات الماضي البعيد...40

توبة طلاق...43

الزُّهورُ المُحترقةُ..........46
السنيورةُ والمجذوبُ..........49
أحلامٌ صغيرةٌ..........57
البابُ الأخضرُ الكبيرُ..........60
السِّمَّاوي..........64
خطوطٌ تتحدَّى الموتَ..........67
فراشاتٌ حائرةٌ..........71
ذكرياتٌ مُهمَلةٌ..........78
لوروستي..........82
زفافٌ أبيض وأسود..........86
حدث في مدن الضَّباب..........91
شظايا الرُّوح..........96
تعريف الكاتبة..........99

أين تجد إصداراتنا

- **القاهرة:**
  - المقر: الجيزة دائري- نزلة شارع القومية العربية- برج النور - الدور 8
  - مكتبة عمر بوك ستور: ش طلعت حرب أعلى مطعم فلفلة.
  - مكتبة ليلى: ش جواد حسني متفرع من ش قصر النيل وسط البلد.
  - مكتبة ستيدج: ش المسلماني المنيل بجوار كوبري الجامعة.
  - أقلام عربية : ميدان طلعت حرب
  - فكرة : سيتي ستارز
- **الإسكندرية:**
  - مكتبة المعرض الإسلامي: ماكدونالدز – محطة الرمل.
  - مكتبة بيت الكتب: جيلم.
  - مكتبة الملاز: سابا باشا على البحر بجوار كلية الزراعة.
- **دمياط:**
  - مكتبة ألفا بيتيكا: بجوار صيدلية الأمل.

المنصورة:

- المكتبة العصرية: المشاية بجوار فندق مارشال.
- بيت القصيد: ش الإمان _ حي الجامعة.

الفيوم:

- كريتيف بوك ستور.

- **عين شمس**

- مكتبة لمحة

- **قنا**

- آدم بوك ستور , فاميلي مول

📖 **وتجدونها أيضًا أون لاين:**

على الموقع العالمي جوميا

www.jumia.com.eg

في كل مكان في العالم

وأونلاين على رقم 01142846211

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©
لدار بنت الزيات
المشهرة قانونًا بسجل تجاريّ رقم / 49351
الجيزة دائري - نزلة شارع القومية العربية - برج النور - الدور 8

دار بنت الزيات للنشر والتوزيع :Facebook Page

E_mail: bentelzayat1@gmail.com

Website: www.bentelzayat.tk

Tel.: 01066736765